الفصل الثالـــث

بلاد الرافديـــــن

مدخـــل :

يطلق على المنطقة الممتدة فى آسيا وشمال إفريقية . بين إيران شرقا ووادى النيل وليبيا غربا اسم عام مبهم وهو " الشرق الأدنى " ، وهو ما يطابق تقريبا اصطلاح " الشرق الأوسط " الشائع فى أيامنا ، إلا أن الأنجلو- ساكسون يميلون إلى مد مدلول هذا الاصطلاح الأخير إلى حدود العالم الهندى ، وفى هذا الشرق ، الذى يشكل مشرقنا العربى أهم رقعة فيه ، وحدات جغرافية - تاريخية : الأناضول فى آسيا الصغرى وأوراتو حول بحيرة وان وميدية جنوبى بحر قزوين وفارس فى جنوب إيران . وتمتد بلاد الرافدين فى الشمال الشرقى من بلاد العرب ، من جبال كردستان شمالا إلى الخليج العربى (١) .

وقد أتى المصطلح الأوربى Mesopotamia من المصطلح الجغرافى اليونانى القديم Mesopotamios ويترجمونه ببلاد ما بين النهرين -دجلة والفرات - وهى ترجمة أمينة ، لولا أنه ينبغى أن يقدر أن مواطن الحضارة العراقية القديمة لم تقتصر على ما بين النهرين وإنما امتدت إلى ما حولهما أيضا ، بل إن طائفة من أقدم المواطن الأثرية مثل العبيد وإريدو وأور قامت غرب الفرات وليس فيما بينه وبين دجلة . كما قامت إشنونا (تل أسمر) ونوزى شرق دجلة وليس فيما بينه وبين الفرات . وقد فطن بعض الكتاب الإغريق أنفسهم إلى قصور لفظ ميزوبوتاميا ، فأضافوا إليه بارابوتاميا Parapotamia ، أى خارج النهرين أو ما حولهما (٢).

وإذن فالمصطلح على وجه العموم يدل بصورة عامة على المنطقة المعروفة باسم العراق حاليا ، بالإضافة إلى الجزيرة السورية ، لكن الوضع الجغرافى - التاريخى لم يكن هكذا فى مراحل تاريخية أقدم ، فمن المعروف أن أوضح استعمال لتسمية mesopotamios هو الذى ورد عند المؤرخ الكلاسيكى " بوليبيوس

Polybius ٢٠٢ ق٠م " ، على الرغم من احتمال استعمال المصطلح قبله ٠ وتبع " بوليبيوس " الجغرافى " سترابون ٦٤ ق٠م - ١٩م " فى استعمال هذا المصطلح لإطلاقه على ذلك الجزء من العراق المحصور ما بين دجلة والفرات من الشمال إلى حدود بغداد تقريبا (٣) ٠ وقد كان هذا المصطلح يطابق إلى حد كبير مصطلح الجزيرة الذى استخدمه البلدانيون العرب للدلالة على القسم الشمالى من وادى الرافدين ، وهذا مؤداه أن المنطقة التى كان يحددها هذا المصطلح كانت تضم جزءا من الأراضى العراقية ، إلى جانب جزء من الأراضى السورية (٤) ٠

أما القسم الجنوبى من العراق الحالى فقد أطلقت عليه تسميات عدة عبر عصور التاريخ المختلفة ، مثل " بلاد سومر وأكد " ، وغيرها ٠

ويطابق باحث آخر بين اسم " بلاد الرافدين " والاسم الحديث ، العراق ، الذى يشكل مع سوريا القديمة وفلسطين ووادى النيل ما دعاه " برستيد " (الهلال الخصيب) ٠ وقد قامت بين هذه الأقطار منذ فجر التاريخ وبدايات الحضارة صلات يمكن أن ترقى إلى العصور الحجرية أى إلى ما قبل الكتابة واستمرت خلال المراحل المتعاقبة ودون انقطاع (٥) ٠

وليس معنى هذا أن هناك اتفاقا على تسمية محددة لأرض الرافدين ، إذ لم يتفق المؤرخون على ذلك ، فكلمة عراق يتأرجح معناها بين عدة آراء : فهناك من يرجعها للأصل العربى بمعنى الجرف أو الساحل ، وهناك من يرجعها لأصل قديم " سومرى " أو " سامى " ، مشتق من كلمة " أوروك " بمعنى المستوطن ٠ وقد أطلق عليها كذلك " أرض السواد " ، نسبة للقسم الجنوبى ٠ وهناك من يرى أنه سمى كذلك " لتواشج عروق الشجر والنخل فيه "٠

والذى حصل مع الوقت هو أن نطاق دلالة اسم العراق اتسع ليشمل ، بالإضافة إلى القسم الجنوبى من العراق الحالى ، القسمين الأوسط والشمالى أيضا ، كما حصل الأمر نفسه بصورة عكسية لمصطلح بلاد ما بين النهرين ، فالدلالة الأوربية له لم تعد هى

نفسها التى كان يعنيها المؤرخون اليونان والرومان ، فبموجب الاستخدام الأوربى الحديث لهذا المصطلح ، بات هذا الأخير يشمل بالإضافة إلى الجزيرة (العراقية - السورية) القسمين الأوسط والجنوبى من العراق الحالى (٦) ٠

وتاريخ بلاد الرافدين هو أقرب ما يقرن بتاريخ مصر القديم ، من حيث السبق الزمنى والثراء المتنوع والطابع المتميز واتصال التطور فى مجال الفكر والمادة معا ٠ وكان فيما بقى من آثار العراق ، وما أتت به قصص التوراة عن الأشوريين والبابليين وعلاقتهم بمناطق فلسطين والعبرانيين ، ثم ما سجله الرحالة والمؤرخون والإغريق والرومان الكلاسيكيون عنهم وعنها ما أثار تطلع عدد من الرحالة والباحثين ، بل والمغامرين فى بداية العصر الحديث إلى محاولة كشف النقاب عن آثار بلاد العراق وتاريخها القديم (٧) ٠

وكانت بلاد الرافدين مهد حضارات قديمة ، وكان إنسانها الأول متفرقا فى مجموعات بشرية انتشرت بين الشمال والجنوب ، وقد استطاع هذا الإنسان أن يحيا حياة قامت على أسس حضرية متقدمة منذ أول عصور فجر التاريخ ، وهذه الأسس أخذت تتطور تطورا رتيبا فى سلسلة متعددة الحلقات ٠ ويجب علينا ألا نعتقد بأن هذا التطور كان يحدث على مسرح واحد ، بل تعددت مسارحه واختلفت أسبابه ، ولكن من الصعب علينا أن نحدد ونتتبع التطور الحضارى بشكل تفصيلى بالنسبة لمجموعة بعينها من البشر طوال عصور متتابعة من التاريخ سكنت مكانا واحدا ، وذلك لسبب بسيط وهو أن المخلفات البشرية التى تركوها لنا فى أمكنة معيشتهم غالبا ما اندثرت واختفت على مر السنين ، ولأنهم أيضا لم يكونوا قد وصلوا فى مدنيتهم إلى الحد الذى استطاعوا معه استعمال أدوات فى حياتهم اليومية تغالب الدهر أو أنهم استعملوا الكتابة على نطاق واسع (٨) ٠

ويحرص باحثون عرقيون على إثبات الأصل السامى العربى ونفى الأصل السومرى لحضارة بلاد الرافدين كما يروج دائما المؤرخون الغربيون ، حيث يشيع القول بأن السومريين ليسوا ساميين ، ومما يستدلون به على ذلك أن الخبير الآثارى " سيتون

لويد " الذى كان يعمل خبيرا فى دائرة الآثار العراقية عدة سنوات كتب مقالا عن اريدو" نشر فى مجلة سومر سنة ١٩٤٧ يستغرب فيه كيف يجروء " كرامر " الخبير الآثارى فى موضوع " السومريات " أن يصرح فى كتابه " الأساطير السومرية " الصادر عام ١٩٤٤ أن معظم أراضى السهل الرسوبى من بلاد ما بين النهرين كان بلا شك يسكنها الساميون عندما نزح السومريون إلى العراق من غير أن يخشى العاقبة ، فيقول ما نصه : " كرامر لم يخش أن يصرح فى كتابه (الأساطير السومرية) بأن معظم أراضى ما بين النهرين دجلة والفرات كان بلا شك يسكنها الساميون " (٩) ٠

ويلفت الباحث العراقى " سوسة " النظر إلى ما ورد فى هذا عن " العاقبة " ، إذ يبدو أن كرامر قد واجه صورة من هذه العاقبة بدليل أن كلامه المشار إليه اختفى فى الطبعات التى تلت سنة ١٩٤٤ ، إذ لم نجد له أثرا فى طبعة ١٩٦١ ٠ وكرامر لم يكتف بحذف تصريحه من الطبعات الجديدة لكتابه بل أصدر كتابا للتأكيد على أنه عدل عن رأيه الأول سماه : " التاريخ يبدأ فى سومر History begins at Sumer " ٠(١٠)

ويسوق " سوسة " براهينه وأدلته التاريخية لإثبات الأصل السامى العربى لحضارة بلاد الرافدين فى النقاط التالية (١١) :

- أن أهم المدن فى السهل الرسوبى فى جنوب العراق التى اعتبرت سومرية ترجع إلى أصل سامى ، بدليل أنها كانت تقوم فوق قرى سكنية تعود إلى طبقات حضارة العبيد التى ثبت أنها كانت محاطة من كل الأطراف بحضارة عبيدية بأقطار مجاورة سامية بنفس المستوى الفنى ونفس الزمن ، وهى سوريا وجزيرة العرب والخليج العربى التى هى من أصل سامى عربى ٠ وقد دلت الدراسات الأنثروبولوجية للهياكل العظمية التى وجدت فى مقبرة اريدو والتى تنتمى إلى حضارة العبيد أن سكان العبيد وأريدو هم من أجناس حوض البحر المتوسط الذين منهم الساميون العرب الذين نزحوا من جزيرة العرب إثر الجفاف الذى حل بها ٠

- أن السومريين لم يكونوا قد ظهروا إلى عالم الوجود فى عصور العبيد والوركاء وجمدة نصر فى ما قبل التاريخ ، لأنهم أسسوا حضارتهم (العصر السومرى القديم

والحديث) بعد عصر العبيد بألفى سنة على أقل تقدير ، فى حين أن هذه العصور اعتبرت سومرية ٠

- اعتبرت حضارة الوركاء فى ما قبل التاريخ سومرية ، فى حين أن السومريين ظهروا على مسرح الأحداث بعد عصر هذه الحضارة بألف وخمسمائة سنة على أقل تقدير ، لذلك ينبغى اعتبار حضارة الوركاء فى هذا العصر سامية مثل حضارة العبيد ، وقد وجدت آثار حضارة الوركاء فى سوريا السامية وهى تعود لنفس زمن الوركاء ، لذلك كانت وركاء ما قبل التاريخ غير وركاء ما بعد التاريخ ، يدل على ذلك أن الأولى تعد سامية وليس سومرية ٠

- أن أقدم مدينة فى المنطقة وهى اريدو التى اعتبرت سومرية فى حين أنها سامية أيضا بدليل ما جاء فى اثبات الملوك السومريين من أن أول وأقدم ملك حكم فى المنطقة قبل الطوفان ملك أريدو " ايلولم " وهو يحمل اسما ساميا ٠ وهذا ما ينطبق على كل المدن التى اعتبرت سومرية الأصل وهى كانت قائمة فوق طبقات حضارة العبيد السامية ٠

- أن حضارة جمدة نصر تعتبر سامية أيضا بدليل أنها كانت تقع فى المنطقة السامية وآثارها تعتبر أيضا سامية (١٢) ٠

ونحن لا نملك ، مع الأسف الشديد ، ما يمكننا أن نقبل هذا الرأى أو ننفيه ، فلسنا من أهل الاختصاص ، لكننا لا نستطيع أن نمنع أنفسنا من الاندهاش لهذه النوعية من الجدل حول " الأصول الجنسية الأولى " ، ذلك أننا نعتقد أن شعبا إذ أقام حضارة فى منطقة ، فلا يمكن أن يقيمها بين يوم وليلة ، فمن المؤكد أن أفراده لم يجيئوا جميعا كتلة واحدة ، وإنما هى عادة أفواج وأمواج ، ويمر عليهم وقت طويل حتى يستقروا وينظموا أنفسهم مجتمعا موحدا ، فإذا تم هذا أصبحوا جزءا لا يتجزء من البلد الذى استوطنوه ، خاصة إذا كانوا لم يستقروا بعد غزو منظم مقصود لإقامة دولة بالحيلة أو بالقوة ، وبالتالى ، فماذا يضيرنا إن كان هؤلاء أصولهم سامية أو غير سامية ؟! هل الجنس أو السلالة عامل حاسم فى التكوين الحضارى ؟ إننا إذا أجبنا بالإيجاب فسوف

نقدم ذريعة لمن رددوا عكس ما نردد ، وهـو أن الجنس الآرى هو الذى يملك القدرة على التفوق والتحضر والتقدم ، وهذا وذاك من الأساطير حقا ٠

فجر الحضارة العراقية :

ظل القسم الجنوبى من العراق القديم مغطى بالمياه مما جعل حياة الناس فيه بالتالى غير ممكنة إلى ما قبل الألف الخامس قبل الميلاد ٠ أما شمال العراق فالوضع فيه مختلف : الجزء الغربى منه هضبة واسعة من السهوب المتموجة ، والجزء الشرقى فيما وراء دجلة فيه كثير من التلال المليئة بالغابات والوديان التى تجرى فيها أنهار مهمة ٠وبالتالى فقد هيأ الله فى ميزوبوتاميا العليا الشروط الملائمة لحياة الإنسان ، لذا كان طبيعيا أيضا أن يكون هذا الإقليم المهد الأول الذى نشأت فيه طلائع الحضارة العراقية القديمة (١٣) ٠

ففى هذه المنطقة عاش العراقيون الأوائل على شكل جماعات كانت تسكن الكهوف وتعتمد فى حياتها على الصيد وجمع الغذاء ٠ ومع تطور القوى المنتجة ، وبالدرجة الأولى أدوات العمل ، انتقل العراقيون القدامى إلىممارسة الزراعية المعزقية وتأهيل الحيوان وتربية المواشى إلى جانب الصيد ٠ وبنيت القرى وارتقت الثقافة ولكن رقيا بطيئا ، وظهرت بوادر التصورات الدينية ٠ ومن هذا الإقليم نزح العراقيون القدامى إلى الجنوب ، عندما تراجعت مياه الخليج وتشكل السهل الغرينى الخصيب ، حاملين معهم إلى ميزوبوتاميا السفلى تقاليدهم الحضارية ، وشرعوا فى تجفيف المستنقعات وتنظيم الرى وحراثة الأرض وتربية المواشى وبناء القرى على تلال اصطناعية ٠ وعندما وصل السومريون إلى هذه المنطقة اتصهروا مع سكانها الأوائل وأخذوا حضارتهم وطوروها بفضل العمل الدؤوب والتعاون المشترك بين القادمين والمستوطنين القدامى (١٤) ٠

وقد تم الكشف عن آثار أشارت إلى صور من التقدم الحضارى فى مواقع مختلفة بالعراق القديم ، نذكر منها :

حضارة تل حسونة : حيث عثر الآثاريون فى قرية حسونة . التى تقع على بعد بضعة كيلومترات إلى الجنوب من مدينة الموصل الحالية على مخلفات أقدم الجماعات البشرية التى استوطنت بلاد الرافدين ، تاريخها حوال ٦٥٠٠ ق٠م ، فمن هذه المخلفات ما يخص جماعات اعتادت حياة الاستقرار ، إذ شيدوا لأنفسهم مساكن بدائية من الطمى غير المشكل واستعملوا نوعا من الفخار تزينه زخارف مرسومة . هذا إلى بعض الآلات التى تساعدهم على قطع سنابل حبوبهم (١٥) ٠

حضارة تل خلف : حوالى ٥٠٠٠ق٠م تمتد من زاغروس إلى البحر المتوسط ، وقد انتشرت آثار مواقع هذه الحضارة فى حوض دجلة الأعلى ، و المستوى التقنى لهذه الحضارة رفيع وتميز الصناع بالبراعة والجرأة فى التنفيذ ، وهذا ما يلاحظ من خلال الأدوات التى عثر عليها ٠ وبدأت منذ أواخر ذلك العصر صناعة المعادن وبخاصة النحاس والرصاص ، وظهرت نزعة للاهتمام بالعمران (١٦) ٠

حضارة العبيد : نسبة إلى أحد التلول الأثرية جنوبى العراق المعروف ب " تل العبيد " ، وقد عين البعض بداية هذه الحضارة بعام ٤٥٠٠ ق٠م ، وهى أول حضارة فى العراق القديم تنتشر فى الشمال والجنوب ، رغم كونها جنوبية الأصل ، وقد ظهر إنتاجها فى كثير من المجالات ، مثل صناعة الأوانى الفخارية الملونة والمزينة ، وعبر مهرة الصناع عن فنون عصرهم على أفضل إنتاجهم من الأوانى الفخارية ٠ وكان من أهم منتجات حضارة العبيد الجنوبية ما كان يتصل بمهنتى صيد الأسماك والزراعة ٠ هذا وقد اهتم القوم ببناء دور للعبادة (١٧) ٠

حضارة الوركاء : نسبة إلى مدينة " أوروك " فى جنوب العراق ، ويرجع زمنها إلى الحقبة من سنة ٣٨٠٠ ق٠م إلى سنة ٣٥٠٠ ق٠م ٠ ولعل أهم ما يصور الرقى النسبى فى حضارة الوركاء ، هو نقوش أختامها ، وصورت النقوش نفسها حيوانات بيئتها ، كذلك لعبت صور المراكب دورها فى مناظر الأختام ٠ وواصل التطور المعمارى طريقه فى أبنية المعابد والمساكن الرئيسية فى عهده (١٨) ٠ ومن مقومات حضارة الوركاء بوادر الكتابة ، وكانت على هيئة صور استعملت لتسجيل واردات المعابد ٠

حضارة جمدة نصر : ويرجع إلى آخر العصور الحجرية فى الفترة التى تمتد من سنة ٣٥٠٠ - ٣٠٠٠ ق٠م ، وتقع أطلالها على مسافة ٥٥ كم من شمال مدينة الحلة الحالية (١٩) ٠ ومن أهم مميزاتها تقدم فن الكتابة وبدء انتقالها من طور الصور إلى رموز وعلامات ثم صارت مقاطع ذات قيم صوتية ٠ وفى هذا الدور تقدمت الصناعات وازداد استعمال الأختام ٠

السيـاق الزمـنى :

سوف يكون السياق الزمنى لحديثنا عن التربية فى حضارة بلاد الرافدين هو هذا التقسيم الذى أورده " عبد الباسط سيدا " إلى العصور التالية (٢٠) :

١ - عصر السلالات أو عصور دول المدن ٢٨٠٠ - ٢٣٧٠ق٠م :

ا - عصر السلالات الثانى (٢٨٠٠-٢٦٠٠ق٠م) مسيلم - سلالة كيش الأولى - سلالة الوركاء الأولى - ألواح تل فارة ٠

ب - عصر السلالات الثالث (٢٦٠٠ - ٢٣٧٠ق٠م) :

المقبرة الملكية : مس - كلام - دوك ، آ - كلام - دوك ، جلجامش سلالة لجش الأولى (سلالة أور - نانشة) ٠

" أوما " وغيرها من المدن السومرية ، سلالة " أور الأولى "

ميسانيدا " لوكال - زاكيزى ٠

٢ - العصر الأكدى (السلالة الأكدية) (٢٣٧٠ - ٢٢٣٠ ق٠م)

سرجون (٢٣٧٠ - ٢٣١٦) ، (نرام - سين) (٢٢٩٠ - ٢٢٥٥ ق٠م)

٣ - الدور الكوتى وسلالة لجش الثانية (٢٢٣٠ - ٢١٢٠ ق٠م) عصر كودية (حودية) ٠

٤ - سلالة أور الثالثة (٢١١٢-٢٠٠٤ق٠م)

أور - نمو(٢١١٢-٢٠٩٥ ق٠م) شولجى (٢٠٩٤-٢٠٤٧ ق٠م)٠

" أما - سين " أو " بوسين " (٢٠٤٦-٢٠٣٨ ق٠م)

شورسين (٢٠٣٧ - ٢٠٢٩ ق٠م) أبى - سين (٢٠٢٨ - ٢٠٠٤ ق٠م) ٠

٥- العصر البابلى القديم (٢٠٠٠-١٥٩٥ق٠م) ٠

ا - سلالة لارسا (٢٠٢٥-١٧٦٣ ق٠م) مؤسسها (نبلانم)٠

ب - سلالة ايسن (٢٠١٧-١٧٩٤ ق٠م)، مؤسسها اشبى -ارا) ٠

ج- سلالة " أشونا " (٢٠٠٠-١٧٦١ ق٠م) من مشاهير ملوكها " شمسى - ادد "الأول و" ابالیل الأول و " نرام - سين " و " دادوشا " ٠ وابالیل الثانى (١٧٩٠؟-١٧٦١ق٠م) ٠

د- بلا آشور (٢٠٠٠؟ - ١٧٦٠ق٠م)

" شمس - ادد الأول (١٨١٣ - ١٧٨١ق٠م) ٠

ه - سلالة بابل الأولى (١٨٩٤ -١٥٩٥ق٠م) ٠

مؤسسها ، سومورآيم) وسادس ملوكها حمورابى (١٧٩٢-١٧٥٠ق٠م) ،

وآخر ملوكها " سمبسو - ديتانا " (١٦٢٥-١٥٩٥ق٠م) ٠

٦ - العصر الكشى (١٧٠٠-١١٥٧ ق٠م)

الكشيون فى بلاد بابل باسم سلالة بابل الثالثة (١٥٩٥-١١٥٧ق٠م)

٧ - سلالة القطر البحرى (سلالة بابل الثانية ١٧٤٢-؟)

٨ - العصر البابلى الوسيط (١٥٠٠-٦٢٧ ق٠م) ٠

السلالة الكشية السابقة والسلالات البابلية من الرابعة إلى العاشرة ٠

٩ - العصر البابلى الحديث (٦٢٧-٥٣٩ ق٠م)

سلالة بابل الحادية عشرة : نبوبولاصر (؟ - ٦٠٥ق٠م) وابنه نبوخذ نصر)

(٦٠٥-٥٦٢ ق٠م) ونبو نيدس (٥٥٥- ٥٣٩ ق٠م)

استيلاء : كورش على بلاد بابل (٥٣٩ق٠م)

١٠ - العصر الفارسى الأخمينى فى العراق (٥٣٩-٣٣١ قق٠م) ٠

أشهر ملوكه : كورش الثانى (٥٥٩-٥٣٠ ق٠م)، ودارا الأول ٠

الأدوار التاريخية فى بلاد آشور ٠

١ - عصر ما قبل التاريخ ٠

٢ - دور سيطرة دول الجنوب إلى نهاية سلالة أور الثالثة (٢٥٠٠؟ -٢٠٠٠ق٠م)

٣ -العصر الآشورى القديم (٢٠٠٠-١٥٠٠قق٠م)

من مشاهير ملوكه : ايرشم الأول ٠ سرجون الأول (المستعمرة الآشورية فى

تركيا فى كول تبه ، كانيش القديمة - شمسى - ادد الأول(١٨١٣-١٧٨١ق٠م)
٤ - العصر الآشورى الوسيط (١٥٠٠-٩١١ ق٠م)
من مشاهير ملوكه آشور - أو بالط الأول (١٣٦٥-١٣٣٠ق٠م) شيلمنصر الأول(١٣٧٤-١٣٤٥ ق٠م) وتوكلتى - ننورتا الأول (١٣٤٤-١٢٠٨ق٠م) (٢١) ٠

صناع حضارة بلاد الرافدين :

السومريون : تقع بلاد سومر وأكد فى الوادى الأسفل لنهرى دجلة والفرات ، وإلى جنوبها وغربها تقع الصحراء الغربية والخليج العربى الذى كان يمتد فى أيام سومر المبكرة شمالى مجاورات أريدو ، وربما كان نهر دجلة يكون أصلا حدا طبيعيا من ناحية الشرق ، وهى الناحية التى كان من الممكن التوسع من ناحيتها ٠ ومما تجدر ملاحظته أن مدن سومر وأكد إنما كانت تقع جميعا على ضفاف الفرات ، أو أحد أو بعض روافده ، وليست على ضفاف دجلة ، إلا ما ندر (٢٢) ٠

ولم يكن هناك حد فاصل طبيعى بين سومر وأكد ، كالحد الذى يفصلهما معا عن إقليم أشور وميزبزتاميا فى الشمال ، وكان النصف الشمالى الشرقى يحمل اسم " أكد " ، كما كان القسم الجنوبى الشرقى عند رأس الخليج العربى يعرف باسم " سومر " (٢٣) ٠

وقبل قيام السومريين ، وجدت فى المنطقة بين غرب إيران وجنوب العراق مدينة " السوس " القديمة - كانت فيما مضى مركز إقليم يسميه اليهود عيلام (أى الأرض العالية) ٠ فى هذا المكان أنشأ شعب لا نعرف أصله ولا الجنس الذى ينتمى ، إحدى المدنيات الأولى المعروفة فى تاريخ العالم ٠ وقد وجد علماء الآثار الفرنسيون فى هذا الإقليم منذ جيل مضى ، آثارا بشرية يرجع عهدها إلى عشرين ألف عام ، كما وجدوا شواهد تدل على قيام ثقافة راقية يرجع عهدها إلى عام ٤٥٠٠ ق٠م ، وإن كان هناك من المؤرخين (مثل برستد) من يعتقد أن هناك مبالغة فى قدم هذه الثقافة (٢٤)٠

أما السومريون الذين ظهروا بعد ذلك فى جنوب العراق فقد كانوا جماعات ، ليس فى وسعنا ، رغم ما قام به العلماء من بحوث ، أن نعرف إلى أية سلالة من السلالات البشرية ينتمون ؟ وأى طريق سلكوه حتى دخلوا بلاد سومر . وفى ذلك تختلف النظريات والاتجاهات ، ومن يدرى ؟ فلعلهم جاءوا من آسيا الوسطى . أو من بلاد القفقاس أو من أرمينيا واخترقوا أرض الجزيرة من الشمال متتبعين فى سيرهم مجرى دجلة والفرات ، حيث توجد - كما فى آشور مثلا - شواهد دالة على ثقافتهم الأولى ، أو لعلهم قد سلكوا الطريق المائى من الخليج العربى - كما تروى الأساطير - أو من مصر أو غيرها من الأقطار ، ثم اتخذوا سبيلهم نحو الشمال متتبعين على مهل النهرين العظيمين ، أو لعلهم جاءوا من السوس حيث يوجد بين آثارها رأس من الأسفلت فيه خواص السومريين كلها . ويذهب ديورانت فى تعديد الاحتمالات إلى احتمال أنهم قد يكونون من أصل مغولى قديم موغل فى القدم ، ذلك بأن فى لغتهم كثيرا من التراكيب الشبيهة بلسان المغول (٢٥) .

وقد دفعت إلى الحيرة فى تحديد الأصل الجنسى واللغوى للسومريين عدة أسباب ، منها (٢٦) : اختلاف لغتهم المكتوبة عن اللغات السامية المألوفة مع صعوبة تقريبها فى الوقت نفسه إلى مجموعة اللغات الآرية المعروفة . وقد ذهب فرض حديث إلى تقريبها إلى مجموعة اللغات قليلة الشيوع التى تأخذ بطريقة الإلصاق ، مثل المجموعة الأسيانية (نسبة إلى آسيا) ، أو مجموعة الأورال طاى (ومن مظاهر الإلصاق اللغوى إدراج لفظين أو أكثر لتكوين كلمة جديدة ، وإدماج الضمير فى الفعل المتصل به) ، ولكن بغير أدلة مقنعة . ولوحظ من ناحية أخرى أن من أسماء المعالم الرئيسية فى أرض العراق والتى تضمنتها النصوص السومرية نفسها ما يختلف فى لفظه عن مفردات لغة أصحابها السومريين ويختلف عن مسميات اللغة السامية فى الوقت ذاته مثل أسماء : دجلة (لإديقلات) ، والفرات (بورانون ، بورنونا) ، وإريدو ، وشوروباك .. إلخ ، وذلك مما يوحى باختلافهم فى الجنس أو اللغة عمن لحقوا بهم أيضا . ثم ازداد الشك فى وحدة جنسهم أن تبين بعض الباحثين أن جماجمهم الباقية قد جمعت بين خصائص الرؤوس السامية الطويلة وبين خصائص أصحاب الرؤوس العريضة من غير الساميين .

وينقل " سوسة " عن " طه باقر " بأن السومريين هم إحدى الجماعات المنحدرة من بعض الأقوام المحلية فى وادى الرافدين فى عصور ما قبل التاريخ البعيدة ، وأنهم عرفوا باسمهم الخاص ، أى السومريين ، نسبة إلى الإقليم الذىاستوطنوا فيه أخيرا فى القسم الجنوبى من العراق ، أى أن التسمية لاحقة للاستيطان ومشتقة من اسم موضع جغرافى ولا تحمل مدلولا قوميا . يؤيد هذا أن كثيرا من الأقوام التاريخية التى اشتهرت فى وادى الرافدين وأسهمت فى تكوين حضارته وأحداثه سميت باسم المواضع التى حلت فيها مثل الأكديين ، نسبة إلى مدينة " أكد " أو " أكاد" العاصمة التى أسسها سرجو سرجون الأكدى ، والبابليين نسبة إلى مدينة بابل ، والآشوريين نسبة إلى مدينة آشور ، على ما يرجح (٢٧).

ويشارك " فرازات " و " مرعى " فى هذا بقولهما أننا حصلنا على اسم السومريين من ألقاب الملوك الأكديين والبابليين الذين اتخذوا لقبا مزدوجا : (ملك سومر وأكد) = (شر شومرى أو أكدى) . أما الاسم المقابل لكلمة سومر فى اللغة السومرية فهو (كى – إن – جى/ر) . فليس لكلمة سومر أى مدلول عرقى ، وإنما لها مدلول جغرافى – سياسى ولغوى بالدرجة الأولى فى مجتمع مزدوج اللغة سادت فيه اللغة السومرية ثقافيا قبل أن تسلم الدور إلى اللغة الأكدية ، فالمزارعون والفلاحون فى المجتمع السومرى هم من عناصر السكان المحليين الذين ينحدرون من عصر العبيد وهم أسبق من الذين عرفوا باسم السومريين (٢٨) .

ولا مفر أمامنا إلا أن نثنى على ما ينتهى إليه باقر وسائر الباحثين بالنسبة لأصل السومريين ومهدهم أن ذلك من القضايا التى لم تستطع حلها الدراسات اللغوية والآثارية ، وأن كل ما قيل ويقال بشأنها مجرد تخمين وافتراضات لا يمكن البرهنة عليها ولا نقضها بوجه قاطع (٢٩) .

وعلى الرغم من صغر بلاد سومر البالغة ٢٥ ألف كم٢ فقد قامت فى بداية الألف الثالث ق.م دويلات سومرية متفرقة فى مدن عديدة فى جنوبى العراق يحكم فى كل منها سلالة مستقلة عن جارتها ، وقد تطورت الكتابة فى ذلك الحين وأصبحت ملائمة لتدوين الوقائع التاريخية ، فقد أخذ ملوك السلالات يصفون حروبهم وإنجازاتهم

ويسطرون ذلك على ألواح الطين والحجر ، وبذلك انتقل الناس إلى عهد جديد سمى بالعصور التاريخية لأن الكتابة باكتشافها وتطورها أصبحت وسيلة لتدوين التاريخ (٣٠).

وقد بلغ السومريون مرتبة عالية من الحضارة ، فقد بدءوا شق القنوات واستغلال التربة بعقل وتدبير ، وإقامة المعابد والتماثيل . وتركت الحضارة السومرية طابعها المباشر أيضا فى آشور وسوريا ومصر ، ولكن لم يقابلها هذا اتساع فى النفوذ السياسى ، فالواقع أن السومريين كانوا عاجزين دائما من الناحية السياسية عن بناء دولة كبيرة (٣١) .

وقد عثر المنقبون فى بلاد سومر على أنواع شتى من الأحجار ولم تكن البلاد نفسها تحويها ، فمن المعروف أن أهل هذه الحضارة سكنوا دلتا الدجلة والفرات التى تكونت من ترسيبات الغرين على مر السنين ، ولم توفر كبيئة لسكانها غير البوص وأشجار النخيل والطمى ، فإذا استعمل السومريون أنواعا شتى من الأحجار مثل الحجر الجيرى والأبستر والمرمر والديوريت والعقيق ، ثم إذا حذقوا صناعة صهر الذهب والفضة والنحاس ، فمعنى هذا أن كل هذه الأحجار والمعادن ، كانوا يستوردونها من خارج البلاد ، وطبعا دل هذا أيضا على وجود علاقات تجارية واسعة النطاق ، امتدت حتى وصلت إلى بلاد الهند شرقا وآسيا شمالا ، وسوريا غربا ، ثم مصر جنوبا (٣٢).

ويلخص ديورانت الحضارة السومرية تلخيصا موجزا باهرا ، فى هذا التناقض بين خزفها الفج وحليها التى أشرفت على الغاية فى الجمال والإيمان . لقد كانت هذه الحضارة مزيجا مركبا من بدايات خشنة وإتقان بارع فى بعض الأحيان . وفى تلك البلاد - على قدر ما وصل إلى علمنا - نجد أول ما أسسه الإنسان من دول وإمبراطوريات ، وأول نظم الرى ، وأول استخدام للذهب والفضة فى تقويم السلع ، وأول العقود التجارية ، وأول نظام للائتمان ، وأول كتب القوانين ، وأول استخدام للكتابة فى نطاق واسع ، وأول قصص الخلق والطوفان ، وأول المدارس والمكتبات ، وأول الأدب والشعر ، وأول أصباغ التجميل والحلى ، وأول النحت والنقش البارز ، وأول القصور والهياكل ، وأول استعمال للمعادن فى الترصيع والتزين . وهنا نجد فى

البناء أول العقود والأقواس وأول القباب ٠ وهنا كذلك تظهر لأول مرة فى التاريخ المعروف بعض مساوىء الحضارة فى نطاق واسع : يظهر الرق والاستبداد وتسلط الكهنة وحروب الاستعمار ٠ لقد كانت الحياة فى تلك البلاد متنوعة ، مهذبة ، موفورة النعم ، معقدة ، وهنا بدأت الفوارق الطبيعية بين الناس تنتج حياة جديدة من الدعة والنعيم للأقوياء ، وحياة من الكدح والعمل المتواصل لسائر الناس ، وفى تلك البلاد كانت بداية ما نشأ فى تاريخ العالم من اختلافات يخطئها الحصر (٣٣) ٠

الأكـــــاديون : إذا ألقينا نظرة على خريطة بلاد النهرين ، وبدأنا عند الخليج العربى حيث يصب المجرى المشترك لنهرى دجلة والفرات ، ثم تتبعناه نحو الشمال حتى ينفصل المجريان وسرنا مع نهر الفرات لوجدنا مدينة " بابل " التى استمتعت فى يوم من الأيام بشهرة واسعة كعاصمة للبلاد ٠ وإلى الشرق من بابل القديمة نجد مدينة " كش " مقر أقدم ثقافة عرفت فى هذا الإقليم وإلى جوارها نجد مدينة " أكد " التى تنسب إليها دولة " الأكديين " (٢٣٤٠-٢١٨٠أو ٢٣٧١-٢٢٣٠ق٠م) (٣٤) ٠

وقد جاء اسم أكد أو أكاد من كلمة أكادو Akkadu / أغاديه Agade ، وهو الاسم الذى أطلق على مدينة أكد عاصمة الدولة الأكدية التى أسسها شروكين (Sharru-ken) ، أى الملك الصادق ، أو الملك الشرعى أو شىء من هذا القبيل ، واعتادت كتب التاريخ على أن تحور هذا الاسم إلى نطقه الإغريقى وهو " سرجون " ٠وقد ورد ذكر الأكديين فى نصوص سومرية من الألف الثالث فى شروباك فارة ، وهى موطن أوت نابشتيم/ نفشتيم = نوح البابلى ، وفى أور ٠ وأخيرا ذكرت فى نصوص (أبو صلابيخ) المشابهة لنصوص فارة ، والمعاصرة لنصوص إيلا فى سوريا (٣٥) ٠

وكان الأكديون فرعا من هجرات سامية متوالية تكاثرت أعدادها فى بوادى العراق والشام قبيل منتصف الألف الثالث ق٠م ، ثم انشعبت فروعا كثيرة ، فكان منها ما انتشر فى نواحى الشام واتجهت آمال بعض جماعاته إلى مناطق الهلال الخصيب فيها ، كما كان منها ما اقتربت جماعاته من المناطق الخصبة فى أواسط حوض نهر الفرات بالعراق ٠ وعرف أصحاب الشعبة الأولى باسم أطلقه السومريون عليهم وهو " الأموريون " ربما بمعنى أهل الغرب (وإن ذكرت نصوص بابلية أحد آلهتهم الكبرى

باسم أمورو مما يحتمل معه نسبتهم إليه) ٠ أما جماعات الشعبة الأخرى فكان أظهر فروعها فرع " الأكديين " الذين اكتسبوا اسمهم بالانتساب مؤخرا إلى العاصمة أكد (٣٦) ٠

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أننا لا نستطيع أن نؤكد أن " الأكديين " إنما كانوا ينتمون أصلا إلى " المارتو " الساميين ، الذين وجدوا على التخوم الغربية لمنطقة الفرات الأوسط ، وقد وصفهم السومريون بالبداوة ، غير أن مثل هذا الافتراض إنما يبدو مقبولا ، فلقد تركزت العناصر السامية التى نزحت إلى السهل الميزوبوتامى فى تواريخ لاحقة - وخاصة الأموريين - فى نفس المنطقة التى وجد فيها " المارتو " ، كما تعتبر شبه الجزيرة العربية - وخاصة أطرافها الشمالية - هى المنطقة التى صدرت عنها الهجرات السامية فى العصر التاريخى ، ونقرأ فى نقش للملك الأكدى " سرجون الأول " ما يفهم منه صراحة أنه وعشيرته قد نزحوا إلى العراق من شبه الجزيرة العربية (٣٧) ٠

البابليون : حوالى سنة ٢٠٠٠ق٠م أثبت شعب سامى جديد وجوده فى فلسطين وسوريا ، وفى أرض الرافدين فى الوقت نفسه ، ونعنى بهذا الشعب " الأموريين " الذين أسسوا سلسلة من الدول ، وفى آخر الأمر ظفرت إحدى هذه الدول الأمورية بالصدارة ، وهى التى تسمى الدولة البابلية الأولى (حوالى ١٨٣٠-١٥٣٠ق٠م) ٠(٣٨)

وبابل هى مدينة قديمة تقع على الفرات ، على مبعدة ٩٠ كم جنوبى بغداد ، ويقوم على أطلالها حاليا ، تل بابل والقصر وعمران بن على والمركس وقرى أخرى مثل عنانة وكويرش وجمجمة واندسار ٠ ورغم أن التنقيبات فى بابل لم تتقدم بسبب ارتفاع مستوى المياه الجوفية إلى أكثر من طبقة العصر البابلى القديم ، إلا أنه يجوز الافتراض أن المدينة كانت قبل وصول الأموريين - أو الساميين الغربيين - إليها ، مجرد بلدة عادية ، عرفها السومريون باسم " كدنجيرا " ، فأحالها الأموريون إلى حاضرة كبيرة ، وأحسنوا استغلال موقعها التجارى والزراعى فى أضيق منطقة خصبة يتقارب فيها نهر دجلة والفرات ، وأطلقوا عليها اسم " بابل " ، وهو اسم ليس هناك ما

يمكن تأكيده عن معناه ، وإن كان الشائع هو ترجمته بمعنى " باب ايلو " أى " باب الإله" (٣٩) ٠

وتعتبر بابل من حيث تاريخها وجنس أهلها نتيجة امتزاج الأكديين والسومريين ، فقد نشأ الجنس البابلى من تزاوج هاتين السلالتين ، وكانت الغلبة فى السلالة الجديدة للأصل السامى الأكدى (٤٠) ٠واللغة البابلية كلغة لا مفر من القول بأنها كانت خليطا فى تركيبها ، إذ كانت تحوى كلمات سومرية وآكادية كتبت غالبيتها بالحروف السومرية ، التى لم تكن تصور حروفا بل مقاطع ، ولكن بالتدريج أخذ العنصر السومرى تحل محله مفردات تسودها السامية ، وصارت اللغة السومرية ذاتها لغة كلاسيكية لم يكن يدرسها إلا العلماء والكهنة ، (٤١) ٠

وكان أبرز ملوك الدولة البابلية " حمورابى " الذى عاش فى القرن الثامن عشر قبل الميلاد ٠ وقد لاحظنا أن النظام السياسى السائد فى بلاد الرافدين قبل عهد حمورابى يقوم على وجود عدد من الدويلات على رأس كل منها أمير ، ومنذ تولى حمورابى السلطة أخضعها جميعا لنفوذه ووحدها تحت سلطانه ، وأحل حكاما للأقاليم محل الأمراء القدامى ، وكان من نتائج تركيز السلطة بين يديه أن توحد القانون فى البلاد التى يحكمها كما توحدت الديانة ، إذ ظهرت ديانة للدولة هى ديانة الإله " مزدك " إله بابل وبذلك اختفت آلهة الدويلات القديمة ٠ وقد دلت الآثار التى خلفتها المدينة البابلية على أن تلك البلاد وصلت – فى عهد حمورابى – إلى درجة كبيرة من التقدم والحضارة (٤٢) ٠

ومن دليل الأختام ومختلف النقوش التى فكت طلاسمها يمكننا أن نصل إلى أن حمورابى كان أساسا رجل عمل ، ولكن على الرغم من أنه كان يفاخر جهارا بمآثره العسكرية ، لم يكن أقل اهتماما بأنه يجب على الأجيال القادمة أن تعلم عن إنجازاته المدنية فى مجال البناء والرى ٠ وسواء لأنه كان ينقصه الميل إلى القوة التى كان يلجأ إليها الغزاة بمنتهى السهولة أو لأنه كان يعتبر نفسه قويا بما يكفيه لأن يكون فى غنى عن مثل هذا الأسلوب من إثارة الرعب فى أعدائه فهو لم يخلف وراءه بيانا بمذابحه وتخريباته مثل تلك البيانات التى بقيت من عهود غيره من الفاتحين الأقدمين (٤٣)٠

ولم تعتمد شهرة حمورابى على فتوحاته ومنشآته ورعايته لاقتصاديات بلده بقدر ما اعتمدت على تشريعاته الإدارية والقانونية المتنوعة التى بدأ بإصدارها منذ العام الثانى من حكمه وحتى أواخر أيامه ٠ ولم تعد هذه التشريعات تعتبر هى الأولى من نوعها فى تاريخ بلاد الرافدين كما كان يظن من قبل ، حيث سبقتها ثلاث محاولات للتشريع ولتدوين نصوص العرف القديم وتقنينه ، فى أور ، وإشنونا ، وإسين (وإصلاحات لجش احتمالا) ، ولم تكن مرة أخرى بنت عهدها ولا جديدة كلها ولا صدرت فى سنة واحدة ، وإنما تضمنت كثيرا مما سبقها من نصوص الأعراف الاجتماعية واللوائح الإدارية ونصوص التقنين ، وأبقت بعضها على حاله ، وعدلت بعضها الآخر وزادت عليه ، واكتسبت بعض شهرتها بناء على نقشها على أكبر سجل قديم عثر عليه حتى الآن احتفظ بقوانين عهده والعهود التى سبقته ٠ وأغلب الظن أنه تولى تجميع هذه التشريعات فى أواخر عهد حمورابى عدد ما من رجاله القانونيين والمؤرخين الإداريين أغفلت النصوص أسماءهم ونحلت فضلهم إلى ملكهم ، بل وجعلتها من وحى ربه إليه ، وهو مسلك كثيرا ما تكررت أمثاله فى العصور القديمة ، بل والعصور الحديثة أيضا !! (٤٤) ٠

وزادت الثروة فأنتجت فى بابل ما تنتجه فى سائر بلاد العالم ، ذلك أن من السنن التاريخية التى تكاد تنطبق على جميع العصور أن الثراء الذى يخلق المدنية هو نفسه ينذر بانحلالها وسقوطها ، فالثراء يبعث الفن كما يبعث الخمول ، وهو يرقق أجسام الناس وطباعهم ، ويمهد لهم طريق الدعة والنعيم والترف ، ويغرى أصحاب السواعد القوية والبطون الجائعة بغزو البلاد ذات الثراء ٠ وكان على الحدود الشرقية لهذه الدولة الجديدة قبيلة قوية من أهل الجبال هى قبيلة الكاشيين تحسد البابليين على ما أوتوا من ثروة ونعيم ، وبعد وفاة حمورابى بعدة سنوات استطاع هؤلاء الجدد أن يقوضوا أركان الدولة البابلية لينشئوا بدورهم دولة جديدة (٤٥) ٠

ويمكن تقسيم العهد الكاشى فى بلاد الرافدين إلى فترتين ، ففى إبان الفترة الأولى التى تمتد إلى الربع الأخير من القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، واجهت البلاد تخريبا هائلا وأضرارا اقتصادية بالغة ، فشرعت الحكومة بتنفيذ أعمال كبرى لإصلاح شبكة

الرى وإعادة بناء السدود وتنظيم تخزين المياه ٠ وفى نهاية القرن الخامس عشر ق٠م تبدأ الفترة الثانية ، وفى خلالها تطورت الحياة الاقتصادية تطورا كبيرا (٤٦) ٠

الآشوريون : الآشوريون من الأقوام العربية السامية ، قدموا من سوريا إلى شمال العراق واستقروا فى منطقة حوض دجلة الأوسط حوالى سنة ٣٠٠٠ ق٠م ٠ وتتصف هذه المنطقة بطابعها الجبلى وكثرة ودياتها النهرية ونمو الغابات وأشجار الفاكهة والمراعى الطبيعية ، وهى غنية بأحجارها ومعادنها ، خصبة فى غلالها وثمارها (٤٧) ٠ وتشكل جبال كردستان من الشمال وزاغروس من الشرق حدودها الطبيعية ٠ أما من الجنوب والغرب ، فالحدود مفتوحة نحو بلاد الهلال الخصيب ٠ وقد أثر الطابع الجبلى لهذه المنطقة فى اقتصاد آشور وتاريخها الاجتماعى والسياسى ٠

وتقع مدينة آشور على الضفة اليمنى لنهر دجلة إلى ما دون ملتقاه بالزاب الأعلى : ففى شمالها سهل منخفض غرينى كونته مياه دجلة ، وتنحدر المدينة إلى الجنوب ٠ أما من الغرب فهضاب صخرية ، وأما إلى الشرق فسهل يعرف بسهل " مخمور "٠ وسميت المدينة باسم آشور نسبة إلى القبيلة وإلهها آشور ، كما سميت بلادهم ببلاد آشور ، وتبعد آشور مسافة ٣٥٠كم إلى الشمال من بابل ، وأصبحت عاصمة للبلاد فى عهد الدولة الآشورية القديمة (٤٨) ٠

ويقسم المؤرخون تاريخ بلاد الآشوريين إلى حقبتين ، تمتاز الأولى ، وهى التى تمتد من حوالى سنة ٢١٠٠ إلى ٩٠٠ ق٠م بفترة نضال عنيف ، تكون فيها الآشوريون تكوينا سياسيا وعسكريا ، وهى فترة طويلة تعرض فيها الآشوريون إلى محن وأخطار خلقت منهم القوة العسكرية التى سجلها التاريخ على صفحاته ، أما الحقبة الثانية ، وتمتد من سنة ٩٠٠ إلى سنة ٦١٢ ق٠م فهى تمثل طور النضج السياسى ، بعد أن اجتاز الآشوريون محنهم ، واستقرت لهم الأمور ، وأسسوا امبراطورية واسعة الأطراف امتازت بطول عصرها ، وتفوق الأنظمة الإدارية التى اتبعوها لإقرار سيطرتهم ، وذلك بالنسبة إلى الإمبراطوريات التى ظهرت على أيدى رجال خرجوا من البيئة الجنوبية (٤٩) ٠

ونشأت الدولة الجديدة حول أربع مدن ترويها مياه نهر دجلة وروافده ، وهى آشور ، وأربلا ، والكلخ ، ونينوى ، على الضفة المقابلة لمدينة الموصل شمال العراق (٥٠).

هذا وتشير لغة الآشوريين إلى أصولها السامية ، فلقد تحدث القوم بلهجة من لهجات اللغة الأكادية ، وهى اللغة التى انتشرت فى أنحاء العراق منذ أواسط الألف الثالثة ، وحتى أواخر الألف الأولى ق.م ، واستخدموا الخط المسمارى ذاته الذى ابتدعه السومريون ، وطوره الأكديون والبابليون ، كما اتصفت معتقداتهم الدينية وأفكارهم وحياتهم الاجتماعية والاقتصادية وغيرها من نظمهم المختلفة ، بالصفات العامة التى اتصفت بها مثيلاتها عند بقية سكان العراق القديم ، حتى بات من الصعب علينا أن نميز بين أصول العناصر المختلفة : أهى سومرية أم أكدية ؟ بابلية أم آشورية ؟ (٥١) .

وقد استمرت هذه المنطقة أكثر من عشرة قرون فى مهب الريح ، لا تعرف راحة ، ولم تذق طعم الطمأنينة ، فالخطر يحيق بهم من كل جانب ، وكان عليهم أن يقاوموا ، ويقاوموا حتى لا يستسلموا ، فخبروا القتال ، وجعلوا منه وسيلتهم للمحافظة على كيانهم ، ولعل آشور هى الأمة الأولى التى عرفت قيمة الجيوش القائمة ، بل وقامت حياتها على النظم العسكرية ، ولذلك نراهم عندما ظهروا فى التاريخ كأمة متماسكة الأطراف ، قد برزوا وتفوقوا فى نظامهم ، وتماسكوا ، ولم يفشلوا فى تاريخهم السياسى بالسرعة التى رأيناها ، بالنسبة إلى الدول التى قامت فى الجنوب ، والتى عاشت وامتدت أطرافها تحت حكم ملك معين من ملوكها ، ثم لا تلبث أن تتفكك وتتلاشى بموته (٥٢) .

وفى فترة من الفترات وجدنا حكومة آشور بانيبال تضم تحت جناحيها امبراطورية ضخمة تشمل بلاد : آشور ، وبابل ، وأرمينيا ، وميديا ، وفلسطين ، وسريا ، وفينيقيا ، وسومر ، وعيلام ، ومصر (٥٣) .

وفى الفترة من عام ٦٢٦ - ٥٣٩ ق٠م دخلت بلاد الرافدين عصر " الكلدانيين " ، وهم قبائل " كلدو ، فرع من الآراميين كانوا قد جعلوا من ضفاف العراق قبلتهم منذ القرن الرابع عشر ق٠م أو نحوه ٠ وتسلل الآراميون إلى بابل فى أواخر عصرها الكاشى ، واستمر الآراميون فى توسعهم ، فامتدت قبائل كالدو فى جنوبى العراق حتى الخليج العربى ٠ ولم يكن الآراميون بغير أثر فى المجتمع العراقى ، على الرغم من تفرقهم واعتمادهم على حضارة البابليين والآشوريين ، فقد ترتب على انتشارهم فى أجزاء شتى من بلاد الرافدين ، وتدخلهم فى المعاملات عن طريق التجارة ، ووجود بعضهم خدما وأرقاء فى بيوت الأثرياء وضياعهم ، أن وجدت لهجاتهم سبيلها إلى السكان الأصليين ، وكتب بها بعض المتعلمين بالخط المسمارى (٥٤) ٠

وعلى أنقاض الدولة الآشورية قامت دولة الكلدانيين على يد " نابو بولاسر (٦٢٦-٦٠٤ ق٠م) ، وكان أبرز الحكام الكلدانيين " نبوخذ نصر الثانى (٦٠٥-٥٦٢ ق٠م)، الذى استطاع أن يدعم من مركز الدولة ويوسع من سلطنها عبر المناطق المجاروة ٠

اللغـة والكتابـة :

سبق لنا أن أشرنا فى الفصل السابق إلى ما تمثله اللغة بالنسبة للعملية التربوية ، أما بالنسبة للكتابة ، فهى أدة تسجيل الإرث الحضارى ، والذى هو المادة الأساسية التى يقوم عليها العمل التربوى ، فضلا عن الكثير مما يمكن الإشارة إليه من حيث ما تمثله الكتابة من موقع " مفصلى " فى التطور الحضارى للإنسان ، ويكفى أن التاريخ الإنسانى إنما ببدأ التدوين الكتابى ، فمع أن التاريخ الإنسانى قد يمتد فى عمق الزمن إلى مئات الألوف من السنين ، إلا أن التاريخ " المكتوب " لا يزيد عمره عن آلاف قليلة من السنين قد لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة ، ومن هنا فإن التأريخ للكتابة فى حضارة بلاد الرافدين إنما هو تأريخ لأهم أركان ومقومات العمل التربوى٠

وهناك ما يشبه الإجماع بأن الكتابة هى أهم ما قام باختراعه العقل الإنسانى إبان الحضارة السومرية ، وقد اصطلحنا على تسميتها بالكتابة " الإسفينية " ، وذلك لأن

الكاتب كان يرسم علاماته فوق سطح لوحات طينية لا تزال طرية مستعملا فى ذلك قلما يشبه " الإسفين " مثلثا ومنشورى الشكل يمسك به مائلا وهو يضغط على سطح اللوحة بخفة .وكان الركن يترك خطا رفيعا بينما تترك القاعدة علامة أكثر عمقا واتساعا . وتقرأ الكتابة السومرية من اليمين إلى اليسار ، وكانت تتكون فى أول الأمر من صور تعبر كل منها عما ترمز إليه ، ثم بعد ذلك تطورت نحو السهولة فى الاستعمال باختصار الخطوط التى تتكون منها الصورة (٥٥) .

والخطوة التالية لذلك كانت استعمال العلامة ليس للتدليل عما تمثله بل كحروف نطق ومثل ذلك " السهم " استعمل أولا للتدليل على أداة القتال ، ثم استعمل نطقها " تى " للتدليل على " الحياة " ، وهى كلمة تنطق فى لغتهم " تى " أيضا . وللتفرقة بين المعنيين أردفوا علامة السهم " تى " بمخصص هو قطعة من الخشب للتدليل على أن الكاتب يقصد " السهم " المصنوع من الخشب وليس " الحياة " . وتمتاز الكتابة السومرية بأنها عرفت الحروف المتحركة ، وهذا مما يسهل على القارىء نطق الكلمات (٥٦) .

وإن ما يميز الكتابة التى أوجدها السومريون فى وادى الرافدين قديما هو اعتمادهم مادة خاصة ، فبينما نلقى مناطق أخرى استخدمت مواد الخشب والجلد والبردى للتعبير عن الفكر عبر رموز متفق عليها ، مع شىء يسير من أنصاب حجرية نقشت عليها بعض الكتابات ، نرى شعوب وادى الرافدين تستخدم الصلصال ، بحيث أن القاص الكتابى للتوراة ، لدى وصفه لتشييد برج بابل ، يحدد خاصية حضارة بلاد النهرين بقوله أنهم استعاضوا عن الحجر باللبن . ولا عجب ، فقد كانت أرض جنوب العراق منطقة فيضانات ، لذى نرى الناس الذين سكنوها ، يلجأون إلى استخدام المادة الوحيدة المتوافرة لديهم وهى الطين ، وكان للخطوط التى يرسمونها نهايات مدببة بسبب رأس قلم الكتابة ، الذى كان أشبه بالمسمار ، ومن هنا جاءت تسمية هذه الكتابة بالكتابة المسمارية (٥٧) .

وقد ظهرت الكتابة المسمارية فى نهاية الألف الرابع قبل الميلاد ، وتوثقت فى تضاعيف الألف الثالث ، وطرأ عليها تغير فى أواسط الألف الثانى ، حتى انشطرت فى

الألف الأول إلى فرعين : آشورى وبابلى . وتجدر الملاحظة إلى أن جميع البلدان المحيطة ببلاد الرافدين – ما عدا بلاد فينيقية وكنعان التى لم تستخدمها إلا فى المراسلات الدبلوماسية – استخدمت الكتابة المسمارية ، كبلاد عيلام أو الحيثيين فى آسيا الصغرى (٥٨) .

ويشير أحد الباحثين (٥٩) إلى فرضية تقول إن السومريين قد تعلموا الكتابة من أحد الشعوب الذى كان على ضفاف نهر الدانوب ، ولكنهم قاموا بدورهم بتطوير هذه الكتابة . وقد أصبحت هذه الفرضية – كما يقول باحثنا – مقبولة أكثر منذ أن تم العثور فى عام ١٩٦١ على الرقم الطينية التى تعود إلى العصر الحجرى الجديد فى منطقة تارتاريا برومانيا ، فالتشابه بين الإشارات الواردة فى هذه الألواح وبين أقدم الكتابات التى خلفها السومريون واضح فى ظل هذه الفرضية ، ولذلك فقد استخلص علماء الآثار أن هذه الإشارات ، بالإضافة إلى الكثير من أمثالها التى تم اكتشافها قبل وبعد ١٩٦١ فى ضفاف الدانوب ، قد نشأت تحت تأثير الحضارات الكبيرة للشرق الأوسط ، إلا أن نتائج التحاليل الراديوكربونية قد فاجأت وحيرت الخبراء لأنها أوضحت أن تلك الإشارات من ضفاف الدانوب أقدم بمئات السنين من أقدم الرقم السومرية . وليس من المستبعد أن تفاجئنا التحاليل الراديوكربونية فى المستقبل أيضا ، ولذلك فإن الوقت مبكر جدا لاستخلاص رأى نهائى حول هذا ، أى من الذى تأثر بالآخر .

ولأن هناك من يقولون بأن المصريين القدماء هم الذين اخترعوا الكتابة يطرح " سارتون " تساؤلا عما إذا كان الاختراع السومرى قد ظهر مستقلا عن الاختراع المصرى ؟ وهو هنا يذكرنا بأن انتقال اختراع ما من إقليم إلى آخر يمكن فهمه على صورتين مختلفتين تمام الاختلاف ، حسبما ينظر الباحث إلى ذلك الاختراع فى ظاهرته العامة أو فى ظاهرته الفنية (٦٠) ، فالظاهرة العامة فى هذه الحالة أن اللغة المحكية يمكن أداؤها على وجه الدقة وترتيبها بواسطة علامات مكتوبة . وهذه الظاهرة اهتدى إليها كثير من الشعوب كل على حدة ، وهى فى مرحلتها الأولى ظاهرة طبيعية بسيطة ، لأنه من اليسير أن تكون الرموز المصورة دالة على الأفكار أوالحقائق .

وقد استعمل الهنود الأمريكيون والهنود والصينيون والسومريون والمصريون وشعوب أخرى مثل هذه الرموز . ونحن لا نزال نستعمل البعض منها ، ومثال ذلك صورة الجمجمة والعظمتين المرسومة على عبوات الأدوية ، وهى لا تحتاج إلى تفسير . غير أن بعض المفكرين من هذه الشعوب أدركوا عاجلا أو آجلا أن ذلك النمط من الكتابة يكثر فيه الغموض والإبهام ، وأن استعماله محدود بحدود ضيقة ، فهو لا يستطيع التعبير الخطى عن المعانى المجردة أو المشاعر أو أسماء الأشخاص أو الأمكنة . أما من ناحية الأداء الفنى الذى تحققت به تلك الظاهرة ، فالطريقتان المصرية والسومرية مختلفتان بعضهما عن بعض ، بحيث نستطيع أن نقول بأن أحد الشعبين لم يؤثر فى الآخر (٦١) .

أما الباحث العراقى " سوسة " فيرى أن الخط المسمارى الذى نسب اختراعه إلى السومريين ، إذا كان قد ظهر فى الألف الرابعة قبل الميلاد لأول مرة ، فهذا يعنى ظهوره قبل أن يكون السومريون قد وجدوا بعد ، على هيئة ألواح صورية (أى أن كل علامة مسمارية كانت تمثل صورة الشىء المراد كتابته) ، أو الكلمة المطلوب التعبير عنها . ويؤكد سوسة أن الثابت لدى العلماء أن أول وأقدم كتابة صورية معروفة وصلت إلى الآن ، وصلت إلينا من كيش السامية وليس من سومر ، ولم تكن هذه الكتابة على الطين كما كانت عليه الرقم السومرية التى اكتشفت فى الوركاء فيما بعد ، بل كانت منقوشة على الحجر ويرقى تاريخها إلى حوالى عام ٤٠٠٠ ق.م (٦٢).

وعلى هذا فإن الساميين هم الذين اكتشفوا الخط المسمارى واستعملوه على نطاق واسع فى كل البلاد التى سيطروا عليها ، خاصة وقد ثبت لدى الباحث أن الساميين تواجدوا فى المنطقة قبل السومريين ، كما سبق وأن عرضنا ، ولو كان الخط المسمارى من نتاج السومريين وحدهم لكان الساميون قد أخذوا معه اللغة السومرية التى كانت تستعمل مع الأكدية السامية فى كيش . بل إن السومريين هم الذين استعاروا كلمات أكدية سامية وأدخلوها فى لغتهم السومرية ، وهذا ما يدل على أن الساميين سبقوا السومريين فى الاستيطان فى وادى الرافدين ، فاقتبس السومريون كلمات سامية استعاروها من الأكدية السامية (٦٣) .

ويسوق باحث آخر دليلا يؤيد رأى سوسة ، بـأن الكتابـة واللغـة السـومرية احتـوت على كلمات كثيرة مقتبسـة عن السكان الأوائـل الذيـن استوطنوا المنطقـة ، فمـن ذلـك (٦٤) :

أبين	محراث	أبسين	خط محراث
إيغار	فلاح	سيباد	راعى
باخار	خزاف	أوشبار	حائك
أشلاغ	لباد	أشغاب	دباغ
أوتول	راعى	كابار	معاون زراعى
موخالديم	طباخ	شيدرتوم	حجار
ناغار	نجار	سيموغ	حداد ٠٠الخ

إضافة إلى هذا كانت أسماء كثير مـن آلهـة السـومريين مـأخوذة مـن لغـات الشـعوب التى سكنت بلاد الرافدين قبل السومريين ، فمثلا : أوشار : الأرض ، أشـنان : حنطـة ، أينين : إلهة الخصب ، نيرغال وأريشكيجال : إلها الموت ٠ ومن ناحية أخـرى نجـد أن المدن السومرية كلها تحمل تقريبا أسماء غير سـومرية تعود أصولهـا إلـى الحضـارات التى سبقت السومريين إلى بلاد الرافدين ٠

وإذا كان هناك من فارق بين السومريين والأكديين ، فإنه يتركز بصفة أساسـية فـى مجال اللغة ، فالسومريون كما هو معروف كانوا يتكلمون اللغة السـومرية ، وهـى لغـة ملصقة ما زالت عائلتها اللغوية مجهولة ، بينما اسـتعمل الأكـاديون اللغـة الأكديـة التـى هى واحدة من عائلة لغوية كبيرة درج المختصون على تسميتها بعائلة اللغـات السـامية ، إذ لاحظ علماء اللغة منذ بضعـة قـرون أن هنـاك تقاربـا واضحـا بيـن عـدد مـن لغـات الشـرق الأدنـى القديـم كالأكديـة (ولهجاتهـا : البابليـة والآشـورية) ، والكنعانيـة ، والعبرية ،/ والفينيقية ، والآرامية ، والنبطيـة ، والعربيـة ، ويتجلـى هـذا التقـارب فـى جوانب أساسية لعل من أبرزها الآتى (٦٥) :

١ - اعتمادها بصورة أساسية على الحروف الصحيحة (consonants) ، وليس على حروف العلة (vowels) ، كما هى الحال فى اللغات الآرية . ثم إن فيها حروفا صحيحة إضافية غير موجودة فى اللغات الآرية .

٢ - إن الغالبية العظمى من الكلمات مشتقة من أفعال ذات جذور ثلاثية .

٣ - وجود جنسين فقط هما المذكر والمؤنث وعدم وجود ما يعرف ب " لا مؤنث ولا مذكر " .

٤ - وجود مجموعة كبيرة من المفردات فى هذه اللغات تتطابق لفظا ومعنى .

إن نقاط التشابه هذه ، وأخرى كثيرة غيرها ، كانت السبب المباشر للبحث عن أصل قديم مشترك ترجع إليه تلك اللغات .

واللغة البابلية القديمة لغة سامية ، نشأت من تطور لغتى سومر وأكد ، وكانت تكتب بحروف سومرية الأصل ، ولكن مفرداتها اختلفت عنها على مر الأيام (كما اختلفت الفرنسية عن اللاتينية) ، حتى استلزم هذا الاختلاف بين اللغتين السومرية والبابلية وضع معاجم وقواعد فى النحو والصرف يستعين بها العلماء والكهنة من الشبان على تفهم اللغة السومرية " الفصحى " والكتابات السومرية الكهنوتية . ومن أجل هذا نرى نحو ربع الألواح التى عثر عليها المنقبون فى المكتبة الملكية بنينوى معاجم فى اللغات السومرية والبابلية والآشورية وكتبا فى نحوها وصرفها . وتقول الروايات التاريخية إن هذه المعاجم قد وضعت من عهد موغل فى القدم هوعهد سرجون ملك أكد (٦٦) .

وإذا كان الباحثون قد اتخذوا من الكتابة حدا فاصلا بين التاريخ وما قبل التاريخ ، فإنها فى الواقع لم تصبح أداة نافعة للتدوين على نطاق واسع إلا بعد قرون من ظهورها فى سومر ، ولذلك سميت الحقبة التى شهدت ظهور الكتابة فى مراحلها الأولى ب " الدور الشبيه بالكتابى " ، وهو دور كانت فيه الكتابة ما تزال فى أطوارها الأولى ومحدودة فى انتشارها ، وقد استعمل المختصون بالمسماريات مصطلح " النصوص البدائية " للدلالة على رقم الطين التى تعود إلى هذا الدور الذى يمتد من ٣٠٠٠ إلى ٢٦٠٠ ق.م ، والتى تم اكتشافها فى مدن عديدة مثل الوركاء ، جمدة نصر ، العقير ،

أور وشروياك ، وهى نصوص ذات مضامين اقتصادية كليا وغير مفيدة لدراسة قواعد اللغة السومرية ، باستثناء نصوص شروياك (٦٧) ٠

ويشير وجود المدارس وخزانات الكتب إلى أنه كان لاختراع الكتابة غرض آخر عدا حفظ السجلات ، وهو غرض عميق فات انتباه الكاتب العادى ، ولكنه شغل عقول اللغويين الأولين ٠ أما ذلك الغرض فهو حفظ اللغة نفسها وتصويبها وجعلها مادة قياسية ، لأنه ما دامت اللغة غير مكتوبة لم يكن بد من أن يطرأ عليها التغيير والتبديل بسرعة ، ولعله بسرعة أكثر مما يجب ، والكتابة هى التى تساعد على تثبيتها (٦٨) ٠

على أنه ينبغى أن ندرك أن اختراع الكتابة عملية استغرقت زمنا طويلا ، لأنه مع أن الفكرة الأساسية بسيطة فمهما عظم فهم اللغويين الأوائل الذين حاولوا تحقيقها لا يحتمل أنهم أدركوا جميع المصاعب وطرق التغلب عليها مرة واحدة ، ذلك أن عملية تحويل لغة من اللغات إلى مرتبة الكتابة تولد مشاكل لغوية ، وباستطاعتها أن تثير نوعا من الوعى اللغوى فى عقول فئة من أهل العبقرية ، وأن النحويين الأوائل الذين يحتمل أنهم كانوا كذلك أوائل المعلمين (لأن تعليم موضوع ما هو أحسن الوسائل دائما لإتقانه) جمعوا قوائم بكلمات مصنفة هى أصل فكرة المعاجم و " القواميس " ، وكشفت الحفائر فى الموضع السومرى المعروف باسم " أورك " (الوركاء) على مجموعة من هذه القوائم يرجع عهدها إلى ما قبل ٣٠٠٠ ق٠م ، ثم وضع الغزاة الساميون قوائم أكثر تفننا ، وهى تحتوى على كلمات سومرية ومرادفاتها الأكادية ، أو بحثوا فى تراكيب هاتين اللغتين وأساليبهما (٦٩) ٠

وفى حدود منتصف الألف الثالث قبل الميلاد (٢٥٠٠ ق٠م) بدأت تظهر فى سومر الكتابات الخاصة بحكام وملوك السلالات السومرية التى تعرف بين المختصين بالكتابات الرسمية أو الملكية ، والتى تسجل أعمال الحكام والملوك كبناء المعابد وتقديم القرابين للآلهة ، وغير ذلك من أعمالهم السياسية وفتوحاتهم العسكرية ، وبعض كتابات هذا العصر الذى يعرف بين المختصين بالمساريات ب " عصر ما قبل سرجون " طويلة نسبيا ٠

ومن مظاهر تطور الكتابة المسمارية أنها انتقلت بخصائصها من لوحات الطين الشائعة إلى لوحات الحجر والمعدن حيث توافرت (مع بقاء الغلبة للوحات الطين) ، وكانت جهود السومريين الأوائل فى تطويرها بمثابة حجر الزاوية لها ، وظلت تختلف عن الكتابة المصرية القديمة التى نافست شهرتها فى العالم القديم فى أربعة أمور، وهى : سهولة التعبير نسبيا عن الحركات فى مقاطعها ، وتخليها فى أغلب الأحوال عن الصور الطبيعية الأصيلة ، وكذلك فى عدم تطورها إلى مرحلة الحروف الهجائية ، وعدم استفادة أصحابها من مواد الكتابة التى عرفها المصريون لا سيما صفحات البردى وأنواع المداد ٠

لكن هذه الاختلافات كلها لم تحل دون استمرارها قرونا طويلة عند السومريين وعند من تلاهم من الساميين ، بل ولم تقف دون شيوعها من العراق إلى ما يتصل به فى غرب إيران وشمال بلاد الشام وشرق الأناضول ٠ وعندما قل استخدامها فى أواخر التاريخ العراقى وغلبت الكتابة الأرامية عليها شيئا فشيئا ، انطوت فى ظل النسيان ، وأصبحت مجرد رموز وطلاسم ، حتى بدأت الدراسات الحديثة تكشف النقاب عنها مرة ثانية ، منذ أواسط القرن التاسع عشر الميلادى (٧٠) ٠

وسجل السومريون الأعداد الحسابية على هيئة دوائر وأنصاف دوائر أحيانا ، وعلى هيئة خطوط مسمارية قائمة ومائلة تشبه فى جملتها هيئة المربعات والمعينات الأخرى ، واعتبروا العدد ٦ بداية الكثرة فى الآحاد بعد العدد ٥ الذى يمثل نهاية العد على أصابع اليد الواحدة ، كما اعتبروا العدد ٦٠ بداية الكثرة فى العشرات ، وكانوا يرمزون إليه بعلامة مسمارية قائمة شأنه فى ذلك شأن الواحد بداية العد ٠ ولعل التقسيم الستينى الحالى للساعات والدقائق ، كان متأثرا نوعا ما فى أصله البعيد بعلم الفلك البابلى ، المتأثر بدوره بعلم الرياضيات السومرى ٠

وتوافرت للكاتب السومرى مكانته فى مجتمعه ، وكان الكتبة لا يزالون قلة أو يبدو أنهم ظلوا ألصق بالمعابد منهم بغيرها ٠ وظل الناس يحسون بأهميتهم حتى يعاملونهم بأسماء الحكام ورؤساء المعابد ، وحين يلجأون إليهم لكتابة العقود وتحرير الرسائل أو قراءتها ، وكان كتبة المحفوظات يحفظون لوحاتهم الهامة فى جرار وسلال يعنونونها

ببطاقات صغيرة مسطحة أو بيضاوية أو مستديرة ويسجلون عليها طبيعة محتوياتها (٧١) .

المدرسة العراقية القديمة :

وكان نشوء المدرسة السومرية نتيجة مباشرة لاختراع طريقة الكتابة المسمارية وتطورها ، فقد وجدت بعض ألواح تشتمل على جداول دونت لغرض التمرين والدرس ، فالنصف الأخير من الألف الثالث ق.م هو الوقت الذى بلغ فيه نظام المدرسة السومرية طور النضج والازدهار . ومن خلال النصوص نعلم أن عدد الكتبة الذين كانوا يمارسون مهنة الكتابة كان كبيرا ، حتى أن البعض ليقدره بعدة آلاف ، وهو الأمر الذىقد يحمل بعض المبالغة . وأولئك الكتبة على أصناف ودرجات ، منهم الكتبة الصغار المبتدئون ، والكتبة المتقدمون ، والكتبة الملكيون ، وكتبة المعابد ، وكتبة من ذوى التخصص العالى فى بعض نواح خاصة بالشئون الإدارية ، وكتبة أصبحوا من كبار موظفى الحكومة (٧٢) .

وليس من الألواح القديمة العهد التى وصلتنا ما يبين لنا بطريقة مباشرة كيف كان نظام المدرسة السومرية وإدارتها والطريقة التى كانت تسير عليها فى ذلك العهد ، وقد كشفت التنقيبات عن مئات الألواح المنقوشة بمختلف أنواع التمارين المدرسية التى كانت تهيأ فى واقع الحال من جانب الطلاب أنفسهم كجزء من أعمالهم اليومية المدرسية . وتختلف خطوط هذه الألواح من حيث الدقة والمهارة ، فبعضها مدون بخط ردىء بعيدا عن الإتقان مما كان يكتبه المبتدئون ، وبعضها مكتوب بخطوط منتظمة مما كان يكتبه الطالب المتقدم الذى كان على وشك الانتهاء من دراسته (٧٣) .

وكان الهدف الأساسى للمدرسة السومرية ما يصح تسميته بالتخصص أو التدريب المهنى لسد المتطلبات والحاجات الاقتصادية والإدارية الخاصة بالبلاد ، ولا سيما ما يختص بالمعبد والقصر . وقد أصبحت المدرسة نيتجة للتوسع فى مناهجها مركز العلم والثقافة فى بلاد سومر ، فقد عاش وازدهر بين جدرانها العالم الباحث الذى يتزود بجميع فروع المعرفة فى زمانه . كما أن المدرسة السومرية كانت مركزا لما يمكن

تسميته باتأليف الإبداعى ، فكانت المؤلفات الأدبية المنحدرة من الماضى تدرس وتستنسخ ، وفيها ايضا كانت توضع مؤلفات أدبية جديدة . وكان الطالب المتقدم فى بلاد سومر يخصص شطرا كبيرا من مدة دراسته فى حقل القانون ، فكان يمارس على الدوام ضبط العبارات والمصطلحات القانونية ، وكذلك استنساخ نصوص القوانين وقرارات المحاكم (٧٤) .

ومن المتخرجين فى المدارس السومرية من خصصوا حياتهم للتدريس وتحصيل العلم ، يعتمدون فى عيشهم على الرواتب التى كانوا يتقاضونها ، وكانوا يخصصون أنفسهم للبحث والكتابة فى أوقات فراغهم ، وأصبحت المدرسة السومرية التى بدأت حياتها على ما يرجح ملحقة بالمعابد مؤسسة دنيوية مع مرور الزمن وكذلك منهج تدريسها .

أما المدرسون فإن رواتبهم كانت على ما يبدو تدفع من أجور التدريس التى كانت تجمع من الطلاب .على أن التعليم لم يكن عاما ولا إلزاميا ، فكان معظم الطلاب من الأسر الغنية . أما الفقراء فكان من الصعب عليهم توفير المال والوقت اللذين يتطلبهما التعليم طويل الأمد . كما أنه لم يرد فى الوثائق أى اسم لامرأة كاتبة فيؤخذ من هذا على ما يرجح أن قوام طلاب المدرسة السومرية من الذكور فقط (٧٥) .

ورئيس المدرسة السومرية يدعى " أوميا Ummia " ، أى " الخبير " أو " الأستاذ " . وكان يلقب أيضا " أبو المدرسة " . أما التلميذ ، فكان يسمى " ابن المدرسة " وسموا " الأستاذ المساعد " باسم " الأخ الكبير " ، وكان من بين واجباته كتابة الألواح الجديدة لينسخ منها الطلاب ، وفحص النسخ التى يعدها الطلاب والاستماع إليهم وهم يستظهرون دروسهم من الذاكرة . ومن أعضاء هيئة التدريس الآخرين المدرس " المشرف على الرسم " ، و " المدرس المشرف على اللغة السومرية " ، كما كان من هيئة المدرسة " العرفاء " أو المرشدون المنوط بهم أمر المواظبة على الحضور ، ثم " الرجل الموكل بالسوط " ، الذى كان مسئولا عن حفظ النظام النظام (٧٦) .

وكان نهج الدراسة مكونا من قسمين رئيسيين : القسم الأول يمكن وصفه بأنه شبيه بالعلمى وقائم على أساس البحث ، الثانى : خاص بالإبداع والإنتاج الأدبى ، فكان الهدف الأساس للمدرسة السومرية هو تعليم الكاتب كيف يكتب اللغة السومرية ٠ ولكى تتحقق هذه الحاجة فى فن التعليم أوجد معلمو الكتبة السومريين طريقة فى التعليم كانت تقوم أولا على التصنيف اللغوى بتصنيف وتبويب اللغة السومرية إلى مجموعات من الكلمات والعبارات ذات صلة ببعضها ، وفى الألف الثالث ق٠م أصبحت مثل هذه " الكتب المدرسية " متكاملة تامة ، وصارت بالتدريج قياسية مطردة ، فى هيئتها ومحتوياتها وتستعمل فى جميع المدارس فى بلاد سومر ٠

وقد هيأ رجال المدرسة السومرية جداول رياضية متنوعة ، وكثيرا من المسائل الرياضية مع حلولها ٠ أما فى حقل علم اللغة فكانت دراسة نحو اللغة السومرية تحتل مكانة بارزة فى مؤلفات ألواح الطين المدرسية ، كما نجد أن السومريين هيأوا أقدم " المعاجم " اللغوية كما مر بنا ، فى تاريخ الإنسان ٠ ومن هنا فإن استنساخ " نصوص كتابية " واستذكارها ، كان يشمل قائمة طويلة من الكلمات والعبارات ، كان فيها أسماء شجر وحيوان وطير وحشرات ، وبلدان ومدن وقرى وحجارة ومعادن (٧٧) ٠أما المنهج الخاص بالإبداع والإنتاج الأدبى فى مناهج المدرسة السومرية فقد كان يعتمد أساسا على الدرس والاستنتساخ وتقليد مجموعة كبيرة مختلفة الموضوعات من التآليف الأدبية التى ينبغى أن تكون نشأت ونمت فى النصف الأخير من الألف الثالث ق٠م٠ إن هذه التآليف القديمة التى تبلغ المئات كانت غالبيتها العظمى شعرية فى تراكيبها ٠

وكان تعليم النسخ يقوم على التدقيق الشديد ، ومن هنا نجد أن النساخ كانوا يحرصون دائما على أن يتركوا فى نهاية معظم النصوص المسمارية هامشا أو تذييلا يدل ، ضمن أشياء كثيرة ، على شعورهم بعظم المسئولية الملقاة على عاتقهم فى عملية نقل الموروث ، ولهذا فإنهم كانوا يثبتون فى تلك الهوامش ديباجة تنص فى معظم الأحيان على أنه " نقل من النسخة الأصلية ودقق بموجبها " مع ذكر اسم الناسخ وتاريخ الاستنساخ ، ولأمر من تم ذلك ٠ وأخيرا استنزال لعنة الآلهة على كل من يحاول تحريف النص أو أخذه أو إتلافه ، فنحن نقرأ على سبيل المثال فى القصة

البابلية الساخرة عن مكائد جميل - سين (gimil-sin) فى مدينته التذييل التالى (٧٨) :

" كتب ودقق وفق النسخة الأصلية

الناسخ نبو - رختو - أصر (Nabu-rehtu-useir)

الناسخ المساعد ، عضو مجمع

نبو - أخا - أدن (Nabu-Aha-iddin)

كل من يأخذ الرقيم عسى أن يأخذه أيا (Ea)

ولا نعرف إلا النذر اليسير عن طرق التدريس والوسائل التى كانت تتبع فى المدرسة السومرية ، فعندما يصل الطالب إلى المدرسة فى الصباح ، كان عليه أن يدرس اللوح الذى أعده فى اليوم السابق ، ثم يهيىء " ألأخ الكبير " لوحا جديدا يشرع الطالب فى استنساخه ودرسه . وكان كل من " أبى المدرسة " و " الأخ الكبير " على ما يرجح يفحصان استنساخه ليتأكدوا من صحته . وكان الاستظهار له دور كبير فى سير درس الطالب ، كما أن المدرسين ومساعديهم كانوا يشفعون تلك الجداول المجردة والنصوص الأدبية التى كان على الطالب أن يستنسخها ويدرسها بتفسيرات شفهية وتوضيحات (٧٩) .

ومع أن المدرسين ، على ما يرجح ، كانوا يشجعون طلابهم ليحسنوا عملهم عن طريق المديح والإطراء ، إلا أن جل اعتمادهم فى تقويم أخطاء طلابهم عند تقصيرهم هو التجاؤهم إلى " العصا " . ولم تكن حياة الطالب فى المدرسة بالأمر السهل اليسير ، فكان عليه أن يواظب على دروسه فى المدرسة يوميا من شروق الشمس إلى غروبها . وكان يخصص سنين كثيرة للدراسة ، فكان الطالب ملازما للمدرسة من صباه إلى أن يصبح رجلا شابا .

وتدلنا رسالة أو مقالة سومرية عن النشاط اليومى لتلميذ فى المدرسة السومرية ، أنه يخشى إذا تأخر عن موعد بدء العمل فى المدرسة " مخافة أن يضربه معلمه بالعصا " ، فبعد أن يستيقظ يحث أمه أن تهيىء له طعام الغداء على عجل ، وفى المدرسة نجد المعلم ومساعديه " يضربونه بالعصا " كلما أساء السلوك . أما عن حال المعلم فإن ما

كان يحصل عليه من مرتب ، كان يبدو ضئيل القدر ، وعلى ذلك فكان يسعده كثيرا إذا حصل على بعض المال الإضافى القليل من آباء الطلاب ليزيدوا قليلا فى دخله ٠

وهذا الموضوع الإنشائى التالى ، بلا شك كان من تأليف أحد أساتذة " بيت الألواح " - أى المدرسة - ويبدأ بسؤال موجه إلى طالب المدرسة نفسه : " أيها الطالب ، إلى أين كنت تذهب منذ أيامك المبكرة ؟ فيجيب عليه الطالب : كنت أذهب إلى المدرسة ٠ ثم يسأل المؤلف : وماذا كنت تفعل فى المدرسة ؟ فيجيب الطالب : كنت أستظهر لوحى ، وآكل طعام غدائى ، وأهيىء لوحى لأكتبه وأكمله ، ثم يعينون لى درس الشفهى ، وفى العصر يخصصون لى درسى المكتوب ٠ وعندما تنصرف المدرسة أعود إلى بيتى فأدخل الدار وأجد أبى جالسا هناك ، فأطلع أبى على درسى المكتوب ، ثم أستظهر لوحى ، فيسر أبى لذلك ٠٠ وعندما أستيقظ فى الصباح الباكر أواجه أمى وأقول لها : اعطينى طعام غدائى لأننى أريد الذهاب إلى المدرسة فتزودنى أمى برغيفين ٠ وعندئذ أشرع بالمسير إلى المدرسة ، وفى المدرسة قال لى العريف : " لم أنت متأخر ؟ ثم دخلت وأنا وجل خافق القلب فى حضرة مدرس وحييته باحترام ٠٠

ونتيجة لمعاناة التلميذ طوال اليوم الدراسى وضربه بالعصا يشير على أبيه ناصحا إياه بأن خير ما يفعله فى هذا الشأن أن يدعو المدرس إلى بيته ويسترضيه ببعض الهدايا : " لقد استمع الأب إلى نصيحة ابنه التلميذ وجاء المدرس من المدرسة ، وبعد أن دخل البيت أجلسه فى أشرف مكان وقام التلميذ على خدمته وأخذ يستعيد أمام أبيه كل ما تعلمه من فن كتابة " الألواح " ، ثم إن الأب قدم الخمر للمدرس ، وقدم له الطعام وكساه بحلة جديدة أهداه هدية ووضع خاتما فى إصبعه وطابت نفس المعلم من هذا الإكرام وحسن الضيافة ، فأخذ يطمئن ذلك الناشىء الطامح بتعلم فن الكتابة ، وقال له فى لغة شعرية كلاما كثيرا :

" أيها الشاب لأنك لم تهمل قولى ولم تنبذ إرشادى عساك أن تبلغ القمة فى فن الكاتب وعسى أن تتقنه غاية الإتقان ، ولعلك تكون القائد بين إخوتك وأن تصبح رئيسا على جميع أصدقائك ، وليتك تبلغ أعلى الرتب بين طلاب المدرسة ٠ حقا لقد أحسنت فى إنجاز أعمال المدرسة كل الإحسان وأصبحت رجل علم !! " (٨٠) ٠

وتتيح لنا الأساليب البابلية السليمة لتعليم الكتبة أن نتعرف على مشاكل التعليم وطول مدته ، فقد كان الطالب يبدأ دروسه وهو صغير جدا فيرد فى نصوص بأن المتعلم كان ينهض مع الفجر باكرا ، وبعد التغسيل والتنظيف ، يتناول على عجل طعام فطوره الذى تعده له أمه ، ويأخذ معه خبز شعير كوجبة غداء ، ويسرع إلى المدرسة . وإن هو وصل متأخرا ، فعليه أن يندس فى مقعده دون أن يلحظه المعلم ، وإلا نال التوبيخ والقصاص مع تذكيره بالأخطاء السابقة أيضا كقيامه مثلا من دون طلب إذن ، أو عدم احترامه معلميه ، أو انتقاد عملهم بقوله " أن كتابتهم ليست على ما يرام ..." . ولا تمر هذه الأمور عادة دونما ضرب بالعصا (٨١) .

وتتكون الصفوف التى عثر عليها فى حفريات سيبار وماري ، من مقاعد من الطابوق مرصوفة بكل انتظام ، مهيأة لجلوس الطلبة فوقها . كما كان فى متناول أيديهم أوان فخارية مدورة يعجنون فيها الطين بالماء الموضوع فى أكواز طينية صغيرة مخصصة لهم ، ويستنسخون بقصبة محددة ومحدبة الأمثلة التى يعطيهم إياها المعلم ، وذلك إما بكتابته نموذجا واحدا لهم ، أو بكتابته المثال لكل واحد منهم فى أعلى ألواحهم التى يمسكونها باليسار ، كما نلاحظ الأمر على المنحوتات الأشورية التى تصور مشهد كتبة يخطون على الألواح ، أو نراهم يكتبون أحيانا على جلد غزال فى عهود تسبق بكثير العهود التى ظن فيها العلماء أنها زمن بدايات الكتابة على جلود الغزلان ، إذ قيل عادة أن الكتابة على جلد الغزال لم تبدأ إلا فى العهد الوسيط وفى مدينة برغامو الإيطالية ...وفى حالة عدم نجاح الطالب فى تمرينه كان عليه أن يخلط اللوح ويستأنف الكتابة من جديد . لنا من ذلك آلاف الأمثلة التى عثر عليها فى التنقيبات التى أجريت على مقربة من الهياكل . وقد كانت العبارات المستخدمة قصيرة ووجيزة وذات معنى ، ليسهل على الطالب حفظها بسرعة ، فيزداد علما يوما بعد يوم (٨٢) .

وكان على التعليم أن يتحاشى الغرابة مهما كان نوعها ، كما نلاحظ ذلك فى الحوليات (أو أخبار الوقائع والأحداث الملوكية) حيث التنسيق والتركيب فى التأليف هما عينهما دوما، لذا فإن العبارات هى هى نفسها فى أكثر من عصر وعهد ، فلا نلقى مثلا ذكر خسارة منيت بها آشور ، لأن العقلية السائدة كانت تفترض بأن العدو هو

مستتر دوما فى مكان يتعذر أحيانا الوصول إليه ، لذا فلا ذكر فى هذه الدروس للخصوصيات والجزئيات مهما كان نوعها ، بينما يكفينا مطالعة أخبار أعداء آشور للتعرف على الخسائر التى لحقت بالآشوريين ٠ ولم يكن التعليم المدرسى يعرف تغييرا لأنه لا يسمح للكتبة أن يبرهنوا عن مواهبهم الخاصة ، لذا فإننا نادرا ما نلقى الناسخين يضيفون ابتكارات شخصية ، وحين تغدوا هذه الابتكارات مقبولة تدخل رأسا فى عداد المعارف ويتناقلها الخلف (٨٣) ٠

ومما نعرفه أيضا بالتأكيد أن الصفوف كانت مقسمة تقسيما متمايزا ، لكل صف مواده الثابتة ٠ وحين يتم اختيار المادة من قبل المتعلم ، فإن تعلمها يقتضى منه سنوات عديدة ، غير أن مشاق هذه المهنة لم تكن جزافا ، لأن أصحابها ينالون تقديرا واعتبارا كبيرين فى المجتمع ، لذا نرى الكتبة ، وبخاصة من هم من سلالة ملوكية ، يتمتعون بمنزلة اجتماعية تفوق الحدود ٠ وما عدا نصوص قليلة تلعن أيام الدراسة السود ، تمتدح النصوص عادة الكتبة الجيدين المضئين كالشموس ٠

ولم يكن التعليم قاصرا على الكهنة والكتاب فقط ، بل تعداهما إلى أفراد الطبقة الأرستقراطية ٠ ولما كانت دور الكتب مفتوحة للجميع فقد استفاد منها هؤلاء استفادة خاصة ٠ وعلى كل حال فإننا نجد عند مطالعتنا لتاريخ أمم شرقية أن ملوكهم كثيرا ما كانوا يأخذون الشبان النبلاء ليتعلموا فى القصر الملكى كى يخدموا الأمة فى المستقبل (٨٤)٠ ولقد استمرت هذه العادة عند الكلدانيين إلى ما قبل الميلاد بقرون قليلة ، ولدينا مثل تاريخى عظيم يثبت قولنا هذا ، والمثل مأخوذ من العهد القديم ، فلقد جاء فى الإصحاح الأول من سفر النبى دانيال أنه عندما ذهب " نبوخذ نصر " ملك بابل إلى أورشليم وحاصرها وامتلكها:

" أمر الملك (اشفنز) رئيس خصيانه بأن يحضر من بنى إسرائيل ومن نسل الملك ومن الشرفاء فتيانا لا عيب فيهم حسان المنظر حاذقين فى كل حكمة وعارفين معرفة وذوى فهم بالعلم والذين فيهم قوة على الوقوف فى قصر الملك فيعلموهم كتابة الكلدانيين ولسانهم ، وعين لهم الملك وظيفة (طعام) كل يوم بيومه من أطايب الملك ومن خمر مشروبه لتربيتهم ثلاث سنين ، وعند نهايتها يقفون أمام الملك ٠ وكان

بينهم من بنى يهوذا دانيال وحنينا وميشائل وعزريا فجعل لهم رئيس الخصيان أسماء فسمى دانيال بلطشاصر وحننيا شدرخ وميشائل وعزريا عبد نغو " .

تربيــة الأســرة :

وكانت الأسرة فى مجتمع بلاد الرافدين القديم ، مثلها فى ذلك مثل كل المجتمعات فى كل العصور ، وفى مختلف البقاع والحضارات ، هى القوة المربية الأولى والأساسية ، فوفقا لتنظيمها ، وما تحمله من قيم ، وما يقف عليه كبارها من معارف ، ووفقا لمركزها فى المجتمع ، يتشكل الصغار فى أغلب الأحوال ، مما يجعلنا فى حاجة إلى معرفة بعض أوضاع هذه الأسرة العراقية القديمة ، حتى يمكن أن نعرف بالتالى مدى ما كانت تتمتع به من تأثير فى تشكيل الشخصية العراقية قديما .

فقد كان للمرأة السومرية من الحقوق على أولادها ما لزوجها نفسه ، وإذا غاب زوجها ولم يكن لها ابن كبير يقيم معها كانت تدير هى المزارع تماما تدير البيت ، وكان لها أن تشتغل بالأعمال التجارية مستقلة عن زوجها ، وأن تحتفظ بعبيدها أو تطلق سراحهم . غير أن الرجل كان هو السيد المسيطر فى جميع الأزمات . وكان من حقه فى بعض الظروف أن يقتل زوجته أو يبيعها أمة وفاء لما عليه من الديون . وكان الحكم الأخلاقى على الرجل يختلف عن الحكم الأخلاقى علىالمرأة حتى فى ذلك العهد السحيق ، وكان ذلك نتيجة لازمة لاختلافهما فى شئون الملكية والوراثة ، فزنى الرجل كان يعد من النزوات التى يمكن الصفح عنها ، أما زنى الزوجة فكان عقابه الإعدام ، فقد كان ينتظر منها أن تلد لزوجها وللدولة كثيرا من الأبناء ، فإذا كانت عاقرا جاز طلاقها لهذا السبب وحده ، أما إذا كرهت أن تقوم بواجبات الأمومة ، فكانت تقتل غرقا ، ولم يكن للأطفال شىء من الحقوق الشرعية ، وكان للآباء إذا تبرءوا منهم علنا أن يحملوا ولاة الأمور على نفيهم من المدينة (٨٥).

وفى العصر الأكدى ، نجد الأسرة تقوم على نفس الأسس التى سادت بلاد سومر ، وهى أن الرجل له الحق فى زوجة شرعية واحدة ، وإن كان القانون يسمح له بأكثر من محظية . ومما يؤسف له أننا لم نعثر على نصوص قانونية تحدد لنا الأسس التى

كان يقوم عليها كيان الأسرة أو تحدد لنا التزامات الأب نحو أبنائه ، كما أننا لا نستطيع أن نتفهم ما كان يسود المجتمع فى ذلك الوقت من علاقات مدنية تربط بين الفرد والآخر ٠ ولعل أول من حدثنا عن هذا هو " حمورابى " الذى سنفصل قوله بعد قليل ٠ وعلى كل حال فيبدو من بعض النصوص التى وصلت إلينا من العصر الأكدى أن الحياة كانت تقوم على أسس اجتماعية تهدف نحو الفضيلة ، فمثلا نعرف أن الشاب الذى يغرر بفتاة يتحتم عليه أن يتزوجها ، وإذا حدث أن رفض أهل الفتاة تزويج ابنتهم من هذا الشاب حق عليه الشنق ٠ كما كان هناك تشريع يحرم على المرأة الزواج من رجلين ، ومثل هذا التشريع يدل على أن ميولا جانحة ظهرت فى المجتمع الأكدى اعتبرت غير متفقة مع العرف المتوارث واضطروا إذ ذاك إلى منعها بواسطة تشريع خاص (٨٦) ٠

وفصلت تشريعات " حمورابى " (٨٧) صلات الأولاد فى بابل بأبويهم وحقوقهم فى المواريث ، فجعلت من حق كل ولد على أبيه أن يعينه بمهر يتزوج به ، فإذا مات الوالد دون أن يتزوج أحد أبنائه ، أفرد له إخوته قيمة مهر تناسب ثروة أبيه قبل أن يقتسموا ميراثه (المادة ١٦٦) ، وكفلت نفس الأمر بالنسبة للإبنة ومخصصاتها ، بحيث إذا مات أب دون أن يزوج ابنته ودون أن يفرد لها مخصصات مسجلة أفرد لها إخوتها مخصصاتها المناسبة من ميراثه (١٧٨-١٧٩)٠وقيدت حق الوالد فى حرمان ولده بحكم القضاة فى مدى عصيانه ، فإن أدانوه أنذروه ، فإن لم يرتدع وعاود الإساءة إلى أبيه وافقوا على حرمانه ، وإن تبنوا براءته حموه من أبيه (١٦٨-١٦٩)٠

وجعلت تشريعات حمورابى للأبناء الذكور حصصا متساوية فى ميراث أبيهم ومخصصات أمهم ، إلا إذا أوصى الأب لولده البكر بوصية (١٦٥) ٠ وجعلت للإبنة كاهنة كانت أو مدنية أم خنثى (؟) حق استغلال ما يعادل ثلث نصيب أخيها على أن تبقى الرقبة لإخوتها ولا يحق لها أن تتصرف فيها (١٨١) ، وجعلت للأب أن يكتب لابنته فى حياته حق اختيار من يتولى مسئولية إدارة إرثها منه ، فإن لم يفعل قام إخوتها بإدارته والإنفاق عليها من ريعه ٠ فإن قصروا فى ذلك جاز لها أن تؤجره لمن تشاء ولكن دون أن يكون لها حق بيعه أو استخدامه فى سداد دين شخص ما ، وعلى أن تؤول الرقبة فى أمركها بعد وفاتها إلى إخوته ، واستثنيت من عملت بالكهانة العليا

فى معبد مردوك رب بابل فسمح لها بأن تستغل حصتها كما تشاء ، وتهبها لمن تشاء بشرط ألا ترث حقوقا إقطاعية ، حتى لا تنتقل إلى أسرة غير أسرتها (١٨٢).

وألحقت التشريعات الأبناء بخير الأبوين ، فنصت على أنه إذا تزوج عبد بحرة احتفظ أولادها بحريتهم ، فإذا مات عنها زوجها استردت مخصصاتها ، وإذا كانت ذات ولد قاسمت مولى زوجها المقتنيات التى شاركت زوجها فيها بعد زواجها به ، واحتفظت بنصفها من أجل أولادها (١٧٥و١٧٦). وسمحت التشريعات للأب بحق الاعتراف بأولاده من جاريته ، فإذا اعترف بهم شاركوا أولاده الشرعيين ميراثه بشرط أن يتركوا لوده الشرعى البكر حق اختيار نصيبه بنفسه (١٧٠) ، وإن لم يعترف صراحة ببنوتهم حرموا من ميراثه ، مع حرمان إخوتهم الشرعيين من استرقاقهم (١٧١) .

ونظمت التشريعات أمور التبنى فسمحت للرجل بأن يتخذ ربيبه ولدا له يورثه ، فإن فعل واعترف به ولدا ، ثم تنكر له ربيبه ، وكان لقيطا وأبى أبوته وتطلع إلى اللحاق بأبويه بعد أن عرفهما ، قطع لسانه الذى نطق بالمنكر فى حق من رباه ، أو سملت إحدى عينيه أو قطعت أذنه . وحرمت انسحاب الربيب إذا تبناه صانع ورباه وعلمه صنعته . ولكنها من ناحية أخرى أجازت رجوع الربيب إلى أبويه إذا عرفهما ولم يكن متبنيه قد اعترف به ولدا له . كما أجازت رجوع الربيب إلى أبويه إذا لم يعلمه متبنيه الصانع حرفته . واشترطت على من يتبنى طفلا ثم يستغنى عنه بعد أن ينجب أولادا من صلبه ، ألا يرده إلى أهله صفر اليدين وأن يهبه ما يساوى ثلث نصيب ولده من صلبه من ثروته المنقوله (١٨٥-١٩٣) . وإذا اقتصرت فعلة ربيب الكاهنة المتزوجة على إنكار أمومتها قص نصف شعر رأسه ، وطيف به فى البلدة ، وإذا اقتصرت على إنكار أبوة الزوج قص شعره قصة العبيد وأقصى عن البيت .

ونصت الشريعة على أن من باع جاريته أم بعض أولاده أو أجرها (أم أعارها ؟) لآخر فى سبيل توفير الضرائب المستحقة عليه ، حق له أن يستردها من شاريها أو مستأجرها بنفس ما أداه فى مقابلها (١١٩). وحفظت مكانة الزوجة الشرعية إزاء الجارية ، بمثل ما قدمنا لها به ، وبأن نصت على أنه إذا وهبت زوجة زوجها جارية لتعوضه من عدم الإنجاب منها وتغنيه عن التزوج بأخرى ليست من أسرتها ، فأحبها

وشجعها ذلك على أن تعتبر نفسها ندا لها حق للزوجة أن تعيدها إلى الرق وتبيعها (إن استطاعت) ، فإن كانت قد حملت منه أو ولدت له دمغتها بميسم العبودية وأبقتها فى دارها من أجل أولادها (١٤٥-١٤٧).

وقضت التشريعات على من ضرب أباه بقطع يده (١٩٥) ، وعلى من ضاجع أمه بعد وفاة أبيه بأن يحرق معها (١٥٧) ، وعلى من ضاجع زوجة أبيه الأرمل ذات الأولاد باستبعاده من أسرته (١٥٨) ، وقضت بالنفى على من يضاجع ابنته (١٥٤) ، وبالهلاك غرقا على من يضاجع زوجة ابنه بعد دخوله بها (١٥٥)، وكان فى اقتراف هذه الأوضاع الشاذة ما ينم عن تفشى الفساد فى المجتمع .

ولم تكن الروابط بين أفراد الأسرة الأشورية بتلك القوة التى ربطت بين أفراد الأسرة البابلية . ونحن نلاحظ أن قانون " حامورابى " قد حافظ بشكل واضح على الحقوق الشخصية لكل أفراد الأسرة ، بينما نجد أن الآشوريين أعطوا سلطة مطلقة لرب الأسرة وصلت إلى حد أنه يستطيع بيع أطفاله ، وربما قتلهم أيضا .وكان القانون يسمح للرجل بامرأة واحدة ، على أن يتخذ له ما يشاء من السرارى ، ولم يكن لأبناء المحظيات أية حقوق فى وراثة الأب ، وخاصة إذا كان للزوجة الشرعية أطفال .

لقد كانت حقوق المرأة عند الأشوريين ضئيلة ، ومنزلتها غير سامية ، فعندما يختار شاب فتاة ليتزوج منها ، فإنها تعطى من يريدها من إخوته البالغين ، وإذا لم يكن هناك إخوة ، فعليها أن تتزوج من أحد أحفاد حميها البالغين سن الزواج ، أى عشر سنوات ، ومن الغريب أنه إذا حدث أن الفتاة هى التى ماتت ، فلم يكن الشاب يضطر إلى الزواج من إحدى أخواتها . ولم يكن يسمح للمتزوجات من السيدات اللاتى ينتمين إلى الطبقة الحرة أن يخرجن إلى الطريق العام دون أن يغطين رءوسهن ، وبهذه الوسيلة كان يمكن تمييزهن من نساء الطبقات الأخرى . وكانت القوانين تهدف إلى إحاطة المرأة الحرة بكثير من الضمانات ، لكى تبقى عفيفة ، أمينة على عرضها ، ولذلك كانت عقوبة الزوجة الزانية شديدة ، تبلغ حد الإعدام لها ولعشيقها (٨٨) .

وكانت آشور تشجع الإكثار من النسل ، شأنها فى ذلك شأن جميع الدول العسكرية ، وكان الإجهاض عندهم جريمة يعاقب عليها بالإعدام ، بل إن المرأة التى تتهم بأنها أجهضت نفسها ، يحكم عليها بأن توضع على الخازوق ، وإن ماتت قبل تنفيذ الحكم عليها ، تحرم من الدفن (٨٩) .

ومما يصور الدور الذى كانت تساهم فيه ، مثلا ، الأسرة الكلدانية فى التعليم ، ما نقرؤه فى وصف " ديودورس " تعليم الكتبة الكلدانيين حيث كتب يقول (٩٠) :

" غير أن هذه المعارف لم تكن تعلم بالطريقة عينها إلا لدى الإغريق ، بينما فلسفة الكلدانيين تقليد عائلى ، يرثها الإبن عن أبيه كوظيفة عامة . وبما أن مدربيهم هم أهاليهم فهم ينعمون سواء بتعلم المعارف كلها دونما تحفظ أو قيد ، كما بزيادة الكثير على قول معلميهم ، وأنهم بتعودهم على الدرس منذ الصغر ، نلقاهم يتقدموا بوضوح فى التنجيم ، سواء بسبب سهولة تعلم ذلك فى الصغر ، وسواء لأن مرحلة التعليم لديهم هى أطول ... وبينما يظل الكلدان على العلم الذى يتقبلونه تقليديا دونما تغيير ، نرى الإغريق .. يناقضون بعضهم بعضا ، حتى فى التعاليم الأساسية ".

الكتب والمكتبات :

يحتل الكتاب منزلة رفيعة بالنسبة للعملية التعليمية ، فهو " مستودع " ما يتم تعليمه وتعلمه ، مما يحتم استقراء وضع الكتاب والمكتبات فى المجتمع العراقى القديم ، كركن من أركان عملية التأريخ للتربية فيه .

وإذا كان المصريون والسومريون قد اخترعوا الكتابة وارتقوا فى اختراعهم وانتفعوا به وتوسعوا فى استعماله ، فإن المصريين قد استطاعوا - بفضل ما لديهم من مادة للكتابة أصلح مما لدى السومريين - أن يحققوا اختراعا آخر هو " الدرج " أى الكتاب المكون من لفيفة بردية واحدة ، وبذلك أمكن المحافظة على نص بكامله مهما بلغ طوله (٩١) . أما السومريون فلم يكونوا محظوظين فى ذلك ، فدونوا نصوصا مطولة على أشكال مجسمة كبيرة أو على قطع كبيرة من الصخر ، (مثل نص قانون حمورابى) ، لكنه من الواضح أنه ، حتى فى هذه الحالات لم يستطع السومريون أن

يخرجوا ما يصح أن يسمى كتابا ، بل كان النص المطول فى أغلب الحالات يدون فى ألواح كثيرة منفصلة مستقلة بقدر الحاجة ، ولضمان ترتيبها الصحيح كان الكتبة يدونون فى أسف كل لوح عبارة " لوح كذا من سلسلة كذا " ويكتبون فى اللوح المنتهى مطلع السطر الأول من اللوح التالى ، دون أن يكون ذلك كافيا للمحافظة على النص بتمامه . أما الدرج البردى ، فالغالب فيها أنها وجدت سالمة كاملة ، على حين أن الألواح التى تؤلف نصا واحدا لم تصل إلينا بترتيبها ، لأن الألواح تعرضت لتغيير ترتيبها مرارا ، وفقد بعضها أو تشتت بعضها عن بعض ، بحيث صارت إعادة تأليف النص تشبه حل ألعاب الألغاز المتناهية فى التعقيد (٩٢) .

ولعل إخفاق السومريين فى اختراع الكتاب هو الذى أدى بهم إلى العمل على إيجاد دور السجلات وخزانات الكتب وإنشائها بسرعة . ومع التسليم بأن المعابد والقصور المصرية احتوت على مجاميع من درج البردى ، فإن الحاجة إلى المحافظة على ألواح الطين فى ترتيب سليم كانت أشد منها إلى جمع الكتب كاملة . ولذلك فمن المرجح كثيرا أن تكون دور السجلات وخزانات الكتب وجدت فيما بين النهرين فى أزمان قديمة جدا .

وكان السومريون ، فى ضوء هذا يحتفظون بالرقم (الكتابات) الطينية فى أماكن خاصة داخل المعابد أو القصور الملكية أو المدارس ، وقد تم العثور على بقايا هذه المكتبات أو مراكز الوثائق فى المدن السومرية الكبيرة كلاغاش وأوروك ونيبور إلخ . وفى الواقع أننا لا نعرفه الكثير عن مظهر هذه المكتبات أو مراكز الوثائق ، ولا نعرف شيئا عن تنظيمها وعملها ، ومع ذلك فإن الخبير الأمريكى بتاريخ وثقافة السومريين س.ن.كرامر قد سلط أخيرا ضوءا ساطعا على هذه القضية المثيرة ، فقد كشف عن أن أحد النصوص المدونة على رقم طينى محفوظ فى المتحف الجامعى فى فيلادلفيا ، ولاية بنسلفانيا – الولايات المتحدة الأمريكية ، ما هو إلا فهرس لإحدى المكتبات . وفى الواقع أن هذا الرقم الطينى يعود إلى حوالى ٢٠٠٠ ق.م ، وقد تم العثور عليه فى بقايا مدينة نيبور ، المركز الدينى والثقافى للسومريين ، حيث اكتشفت أيضا الكثير من الرقم الطينية ، بالإضافة إلى ورشة للكتابة فى حالة جيدة ومدرسة أيضا . وعلى

الوجه الأمامى لهذا الرقم الطينى نجد سجلا لاثنين وستين كتابا فى موضوعات مختلفة ، حتى أن الكتب ال٣١ الأخيرة تنتمى إلى مجموعة " الحكمة " (٩٣) .

وإن مما يبين اعتزاز العراقيين القدامى بالحفاظ على مدوناتهم للحفاظ على العلم والمعرفة وعلى تاريخ البشرية من الضياع ، فينعكس فى رواية بيروسس الخاصة بالطوفان والتى مفادها أن رجل الطوفان زيثوروس Xisouthros ، أى " زيوسدرا " فى النسخة السومرية ، تلقى أشعارا من الإله كرونس بقرب حلول الطوفان ، وأمرا بحفر حفرة يدفن فيها " أول ووسط ونهاية الكتابات " ! أى كل ما بحوزته من ألواح مكتوبة ، وأن رجل الطوفان نفذ الأمر الإلهى ودفن كل الكتابات فى مدينة سبار " فى اليوسفية " . ويذكر بيروسس أيضا أنه بعد انتهاء الطوفان سمع الناس هاتفا يأمرهم بأن يتوجهوا إلى أرض بابل ليستعيدوا الكتابات المدفونة وينشروها بين الناس (٩٤) .

لقد كان الأمر الإلهى بدفن الألواح المكتوبة بالذات ، دون غيرها من متاع الدنيا ، دليل واضح على أن تلك الألواح كانت فى نظر سكان وادى الرافدين أثمن شىء يمتلكه الإنسان ، فلو قدر لها أن تضيع أو تتلف بسبب كارثة الطوفان لفقد الإنسان أغلى ما عنده : تاريخه ، ونتاجه العلمى والأدبى .

ولقد كان أول عمل للكاتب استنساخ الألواح ، فثمة مجموعة كبيرة من الوثائق كانت تنسخ مرارا حتى تشكل الخزانات أو المكتبات التى لقيناها فى خرائب الهياكل والقصور . وكان لابد من تنسيق هذه الخزانات وضبط محتوياتها وفرز القديم منها ، وترتيبها وفق موادها بحيث يتهيأ لنا ما يمكن تسميته بمكتبة بحوث منسقة وفق المواد المختلفة . وكان المستنسخ يورد فى نهاية كل فصل ذيلا يبين فيه مصدره وتاريخه واسم كاتبه ، كما كان ثمة " قانون " للمكتبات يمنع من الاستيلاء على الألواح أو إتلافها تحت طائلة عقاب اللعنة الإلهية (٩٥) . وكان احترام النص القديم على أنه " شىء مقدس " باعتبار العلم أمرا موحى به ، يحمل الكتبة على استنساخ القوائم حرفيا ، حتى فى حالة ورودها متكررة أو متناقضة ، كما فى قوائم السلالات مثلا ، لأن أية سلطة من السلطات كانت تنسب إلى إحدى السلالات المحلية الشرعية ، حتى فى حالة

اندحارها وعدم تعاقبها على الخلافة وهذا أمر يعقد كثيرا قضية إثبات التسلسل التاريخى للحاكمين ٠

ولعل من الاكتشافات الضخمة حقا مكتبة الملك الآشورى آشور بانيبال الذى تولى الحكم خلال الفترة من ٦٦٩-٦٢٧ ق٠م (٩٦) ، فقد وجد فى هذه المكتبة أكثر من عشرين ألف رقم طينى ، انتقلت إلى المتحف البريطانى فى لندن ، وكشفت هذه الرقم عن أن هذا الحاكم الآشورى الكبير الذى روت المصادر التاريخية الكثير عن شدته ضد جيرانه ، كان فى الوقت ذاته عالما كبيرا ومحبا للكتب ٠ وفى الواقع كان هذا الحاكم هو أول من توصل إلى الفكرة بأن يجمع فى مكان واحد كل ما أبدعته الأجيال السابقة فى الشرق الأوسط فى حقل المعرفة والأدب ، وهى المبادرة التى ندر أن يكون لها مثيل فى التاريخ ٠

وتروى المواد التى اكتشفت فى المكتبة الملكية بنفسها كيف تم إنجاز هذه المبادرة ، فمن خلال هذه الرقم أصبحنا نعرف كيف أن جيشا كاملا من الكتاب قد كلف بأمر ملكى بأن ينسخ عدة مرات كل نص قديم يتم الحصول عليه ٠ وقد كان الكتاب يسجلون بفخر أصل وقدم الأصلى ٠ وبالإضافة إلى هذا فقد تم ببساطة نقل الكثير من الرقم من المدن الأخرى للامبراطورية الآشورية إلى هذه المكتبة ، فمن هذه الرقم نفسها نعرف الآن أنه تم نقل مكتبة خاصة بكاملها من كلاح إلى نينوى (٩٧)٠

ويبدو أن كتب هذه المكتبة كان يمكن أن تخدم دائرة واسعة من المتعلمين ، وبالدرجة الأولى أولئك الذين يدخلون القصر الملكى ، فوجود المعاجم اللغوية المتعددة وكتب القواعد وما شابه ذلك من الكتب يدل فى ذاته على كثرة تداولها ، إلا أن ذلك لا يمكن أن يقودنا إلى أن مكتبة آشور بانيبال كانت مكتبة عامة بالمفهوم الشائع فى وقتنا هذا ٠بعبارة أخرى لم يكن فى وسع أى شخص أن يأتى ويستفيد مما هو متوافر فى هذه المكتبة (٩٨)٠

العلـــــوم والفنـــون :

العلوم بمختلف مجالاتها تشكل مركـز الصدارة فى العمل التعليمى ، فهى محتواه ومضمونه ، وهى بطبيعتها تقوم على عمليتى تعليم وتعلم ، فالجهد الذى يبذله الإنسـان كى يعرف هو تعلم ، وإذا تلقى ما يعرف عن طريق إنسان آخر أكثر منه علما ومعرفة ، فهنا تعليم ، ومن ثم فإن الحديـث عن التقدم العلمى فى العراق القديم ليس مجرد تأريخ للعلم ، وإنما هـو محاولـة الكشف عن محتوى مهم للتعليم فى هذه الحضارة العريقة حقا .

وأول ما يستوقفنا هو الرياضيات . ولم يبق لنا من الاكتشاف الكبير الذى قام بـه البابليون وطواه النسيان سوى تقسيم الدائرة إلى ٣٦٠ درجة ، وقياس الزوايا إلى درجات ، ودقائق ، وثوان ، وقسمة الزمن إلى ساعات ودقائق ، وثوان ، وقد وصلتنا هذه كلها عبر اليونان .

وينسب اختراع النظام الستينى إلى السومريين ، وليس إلى البابليين ، وقد احتفظ البابليون ورثتهم بالنظام الستينى فى النصوص العلمية ، بينما استخدموا عادة النظام العشرى ، فلم يكن النظام الستينى نظاما حكيما فى بداية الأمر ، لأن السومريين بدأوا بالعد على أصابعهم ، وذلك من ١ إلى ٥ ، ثم زائدا ٢ ، و٥ زائدا ٣ ، وهكذا حتى العشرة . وبعد العشرة كان يشار إلى الأعداد على النحو التالى : ١٠ زائدا ١ ، ١٠ زائدا ٢ ، وهكذا حتى العشرة مرتين (٢٠) ، ثم حتى العشرة ثلاث مرات (٣٠) ، وكذلك حتى (٦٠) على أنها الوحدة الأعلى . وكان يعبر عن الأعداد اعتبارا من ٦٠ بالعدد ٦٠ زائدا ١٠ وهكذا دواليك ، ويرمز إلى الستين بعلامة الواحد عينها (٩٩) .

أما النقص الكبير فى مجال الحساب فهو عدم وجود علامة الصفر الذى لم يعرف إلا فى العهد السلوقى ، واستخدم لحفظ المرتبة العددية الخالية من العدد . وقد توصل البابليون إلى معرفة جداول الضرب المطولة ، وكان لهم جداول لرفع الأعداد إلى القوى المختلفة وجداول للجذور وجداول تبين معكوس العدد وهو الرقم الذى إذا ضرب فيه

العدد كان حاصل الضرب ٦٠ (ما دام رقم ٦٠ هو أساس العد فى الطريقة الستينية)٠ وقد استعملت هذه الجداول الأخيرة نفسها للقسمة وذلك بضرب العدد المراد قسمته بمعكوس العدد المراد القسمة عليه أى - = - ويؤخذ معكوس العدد المراد من الجداول ، ويؤخذ حاصل ضرب العدد فى معكوس العدد الثانى من جداول الضرب كذلك ٠ وقد مكنت هذه الجداول الرياضيين من توفير الجهد والوقت فى الحساب والانصراف إلى القضايا الرياضية ، واستطاع البابليون بهذه الجداول إجراء عمليات الضرب والقسمة فى الأعداد الكبيرة (١٠٠)٠

وعرف البابليون من عهد ٢٢٠٠ - ٢٠٠٠ ق٠م كيف يقيسون مساحة المستطيلات والمثلثات المتساوية الساقين والقائمة الزاوية ، كما عرفوا بنظرية " فيثاغورس " بعض المعرفة ، وأدركوا أن الزاوية المرسومة فى نصف الدائرة هى زاوية قائمة ، واستطاعوا أن يقيسوا حجم متوازى المستطيلات القائم وحجم الاسطوانة القائمة وحجم المخروط المقطوع وحجم الهرم الرباعى المقطوع ، واختلف حلهم لمسألة حجم الهرم الرباعى المقطوع اختلافا قليلا عن حل المصريين (١٠١) ٠

وبلغ الجبر مرحلة متقدمة فى بلاد الرافدين ، ويقول بعض المؤرخين أن العرب اعتمدوا على المعلومات الرياضية التى توصل إليها البابليون أكثر من اعتمادهم على اليونانيين فى هذا المجال ، ويعتبر الجبر الحديث تطورا للجبر البابلى الذى تعثر لدى الإغريق ٠

ولم يستعمل البابليون الرموز فى الجبر ، ومع ذلك فقد توصلوا إلى أسس هامة فى خصائص الأعداد ، كما عرفوا المعادلات الجبرية الأساسية من الدرجات الأولى والثانية والثالثة ، واتبعوا فى حلها طرقا عملية تبعث على الإعجاب وبعضها يتضمن مبدأ المتواليات ، ففى المتحف البريطانى لوح يحتوى مسائل تحل بمعادلات الدرجة الثانية ومنها المسألة التالية " لو أضفت مساحة مربع إلى طول ضلعه كان الناتج ثلاثة أرباع ، فما هو طول الضلع ؟(١٠٢)

وكان الفلك هو العلم الذى امتاز به البابليون . وهو الذى اشتهروا به فى العالم القديم كله ، وإن كان السحر منشأ العلم ، فلم يدرس البابليون النجوم ليرسموا الخرائط التى تعين على مسير القوافل والسفن ، بل درسوها أكثر ما درسوها لتعينهم على التنبوء بمستقبل الناس ومصائرهم ، وبذلك كانوا منجمين أكثر منهم فلكيين (١٠٣) .

وقسموا السنة إلى إثنى عشر شهرا قمريا ، منها ستة فى كل منها ثلاثون يوما والستة الأخرى فى كل منها تسعة وعشرون . ولما كان مجموع أيامها على هذا الحساب لا يبلغ إلا ٣٥٤ يوما فإنهم كانوا يضيفون فى بعض السنين شهرا آخر لكى يتفق تقويمهم مع الفصول . وقسموا الشهر إلى أربعة أسابيع تتفق مع أوجه القمر الأربعة . وحاولوا أن يتخذوا لهم تقويما أسهل من هذا بأن قسموا الشهر إلى ستة أسابيع كل منها خمسة أيام ، ولكن ثبت بعد هذا أن أوجه القمر أقوى أثرا من رغبات الناس ، وبقى التقسيم الأول كما كان (١٠٤) .

ولم يكونوا يحسبون اليوم من منتصف الليلة إلى منتصف الليلة التى تليها ، بل كان عندهم من شروق الشمس إلى شروقها التالى ، وقسموا هذه المدة إلى اثنتى عشرة ساعة ، فى كل ساعة منها ثلاثون دقيقة ، وبذلك كان طول الدقيقة البابلية أربعة أضعاف ما قد يوحى إلينا اسمها ، وإذن فتقسيم الشهر إلى أربعة أسابيع ، وتقسيم أوجه الساعة إلى اثنتى عشرة ساعة (لا إلى أربعة وعشرين) وتقسيم الساعة إلى ستين دقيقة والدقيقة إلى ستين ثانية ، كل هذه آثار بابلية لا شك فيها باقية من أيامهم إلى عهدنا الحاضر (١٠٥).

ويذكر فلكيو الملك باستمرار مرصد أربيل ، فى آشور ، وقد كان ، على ما يبدو ، المرصد الرسمى لآل سرجون . ولعل اختيار مدينة اربيل كان بسبب عشتار التى كانت محترمة كعشتار المحاربة ، وهو دور منسوب إلى عشتار (Venus- lucifer) ذات الطبيعة الرجولية (١٠٦) . وكان ثمة كتب مدرسية فى علم الهيئة لاستعمال الطلبة ، منها : حين ترصد ذروة العشرين من شهر نيسان (آذار – نيسان) فعليك الوقوف صباحا بحيث يصبح الغرب عن يمينك والشرق عن شمالك (فيكون اتجاه الطالب إلى الجنوب) وعيناك مرفوعتان ومصوبتان نحو الجنوب ، فإن كانت نجمة الفهود

(Koumarou- Panthere) (النجمة آ) فى مركز السماء ، والذروة أمام صدرك ، فإن النجمة ب (Gamlou) ستشرق ٠

وبالنسبة للطب نجد أنه ومنذ عهد السومريين علا شأنه عندهم فكان لكل داء دواء خاص ، لكنه ظل يختلط بالدين فيعترف بأن المرض لا يمكن شفاؤه إلا إذا طردت الشياطين من أجسام المرض ، لأن الأمراض إنما تنشأ من تقمصها هذه الأجسام ، فالطب السومرى طب ثيوقراطى يجمع بين الأدوية الطبية والتمائم (١٠٧) ٠

واتخذ السومريون من أكباد الذبائح واالخطوط والبقع التى تكون مرسومة عليها دلائل تنبأوا بواسطتها بالغيب وتكهنوا بالمستقبل ٠ وكانوا يقولون بالجسم والروح ، كما كانوا يعدون القلب ، لا الدماغ ، مستقر الفهم والإدراك ٠ كما كشفت الوثائق السومرية عن وثيقة طبية منقوشة بأول صفة صيدلية فى تاريخ الإنسان ، مما يؤكد أن مهنة الأطباء كانت معروفة فى بلاد سومر خلال الألف الثالث ق٠م ٠

وتفيدنا النصوص المسمارية بأنه ، منذ السلالة البابلية القديمة (أى منذ مطلع الألف الثانى) ، كان للطب قواعده وضوابطه ٠ ويميز قانون حمورابى بين الطبيب ، والجراح ، والبيطرى ، والحلاق ، ويحدد أجورهم ، وذلك وفق حالة المريض الاجتماعية ، كما يحدد أيضا عقوبات الأخطاء المهنية ، التى قد تصل ، وفقا لجسامة الخطأ ، إلى حد قطع اليد ٠ كما يعاقب القانون الأفعال غير المشروعة (١٠٨) ٠ ونحن نلقى العمل الطبى مميزا بوضوح عن الممارسات السحرية ، فإن الطبيب هو فى ضمن حاشية الملك إلى جانب المعزم (طارد الشياطين) والموظفين الآخرين ٠

وكان الكتبة والعرافين والأطباء ومراقبى الطيور وموظفى القصر الساكنين فى المدينة ، خاضعون للقسم فى شهر أبريل ، فى اليوم السادس عشر منه ، لذا فعليهم أن يؤدوا القسم ، لكننا لعدم علمنا بنص هذا القسم ، لا يسعنا أن نقارنه بقسم الطبيب اليونانى الشهير أبقراط ٠ وقد كان الطبيب البابلى يستخدم طريقة المشاهدة والتجربة الشخصية ، كما يعلم أبقراط ، وبذلك تخلى عن الأفكار الفلسفية القائلة بنسب بعض الأمراض إلى الآلهة ، كالصرع ، بينما هى تعود إلى علل طبيعية (١٠٩) ٠

ولكن هذا العلم الذى تحرر من سلطان الدين تحررا يكاد يكون تاما كان عاجزا بسبب حرص الشعب على التشخيص القائم على الخرافات والأوهام ، وعلى العلاج بالأساليب السحرية ، ومن أجل هذا كان السحرة والعرافون أحب إلى الشعب من الأطباء ، وقد فرضوا على الناس ، بفضل نفوذهم عندهم ، طرقا للعلاج أبعد ما تكون عن العقل ، فكان منشأ المرض فى رأيهم تقمص الشيطان جسم المريض لذنب ارتكبه ، وكان أكثر ما يعالج به لهذا السبب تلاوة العزائم وأعمال السحر والصلوات ، فإذا ما استخدمت العقاقير الطبية ، فإنها لم تكن تستخدم لتطهير جسم المريض ، بل كان يستخدمها لإرهاب الشيطان وإخراجه من الجسم (١١٠) .

وكان اكتشاف المعادن واستخدامها أحد العوامل التى ساعدت على ظهور الكيمياء وتقدمها فى بلاد الرافدين ، فقد صنعوا البرونز منذ عهد جمدة نصر ، وتشير المكتشفات التى عثر عليها فى مقابر أور إلى معرفتهم مزج المعادن ، فهناك مركبات الإلكتروم (مزج الذهب بالفضة) فى بعض القطع الفنية المكتشفة . وقد مزجوا النحاس بالقصدير أولا ثم بالرصاص فيما بعد . أما الحديد فلم يتسع استعماله إلا منذ الألف الأول ق.م وشاع كثيرا فى العهد الآشورى الحديث . وقد حاولا صنع المعادن الثمينة من المعادن الخسيسة ووصلوا بمحاولاتهم إلى معلومات هامة عن خصائص المعادن وبعض الطرق الكيميائية . كما توصلوا إلى صنع الأصباغ والعطور والعقاقير والصابون والجعة والمشروبات .. إلخ (١١١) .

وبالنسبة للتاريخ ، نجد الكتاب جمعوا الأحداث ووضعوها فى سلسلة متصلة يؤرخون بها للملوك منذ تقلدهم السلطة ، ولم تكن الأحداث تشتمل أخبار الحملات الحربية ونشاط الملوك العمرانى وحسب ، بل تضمنت كذلك تعليقات وحوادث مهمة ومفيدة (١١٢) . والمدونات التاريخية مهمة ، لا من حيث ذكر الحوادث فحسب ، بل من حيث تتابع الملوك وتحديد عدد السنين التى حكم فيها الملك ، ثم عدد السنين التى حكمت فيها الأسرة المالكة (سلالة هذا الملك) ، وبجمع كل ذلك يكون عندهم إثبات (قوائم أو جداول) الملوك والسلالات .

وبالإضافة إلى قوائم الملوك والسلالات ، خلف لنا الأكاديون والبابليون نماذج أخرى من التدوين التاريخى هى " النقوش والكتابات التاريخية " التى هدف منها تمجيد مآثر الملوك والأمراء وتخليد أعمالهم وحروبهم ونشاطهم العمرانى ، دونوها على الحجر والأنصاب والتماثيل وألواح الطين ٠ وقد بدأت هذه السجلات منذ مطلع الألف ق٠م ، وتناهت إلينا من ذلك نماذج كثيرة متنوعة تعد من المصادر الأساسية فى معرفة تاريخ العراق القديم (١١٣) ٠

وقد ساعد على نمو المعارف الجغرافية لدى قدماء العراقيين ، توسع التجارة والفتوحات الخارجية وعمليات مسح الأراضى ، فقد ألف كتاب الجغرافيا جداول مطولة بأسماء البلدان والمدن والأنهار فى العراق والبلدان المجاورة ، فمن ذلك جدول مطول عثر عليه فى تنقيبات " تل حرمل " يرقى عهده إلى الزمن البابلى القديم (١١٤) ٠ وتناهت إلينا نماذج أخرى من هذه الجداول من العهد الآشورى المتأخر وكذلك من العهد الكلدانى ، وفيها إضافات بأسماء المعابد وتفسير أسماء بعض الأقاليم والمدن وهى مدونة باللغتين السومرية والبابلية ٠ ورسموا خرائط للمدن والقنوات وللعالم المعروف لديهم ٠ ولعل أقدم خريطة تناهت إلينا من هذا النوع خريطة مدينة نفر (نيبور) التى يعود تاريخها إلى الألف الثانى ق٠م ٠

وتمثل الفنون بأشكالها المختلفة مجالا مهما من مجالات التعلم والتعليم ، فما من أثر عثر عليه إلا ويدل على أن وراءه يد فنان موهوب استطاع أن يستثمر موهبته فتعلم أن ينقش أو ينحت أو يرسم أو يعزف أو يبنى أو يصنع هذا الشكل أو ذاك من الأشكال الفنية التى تدل عليها بعض المصنوعات ، فقد عثر ، مثلا ، فى خرائب تنتمى إلى العهد السومرى الأول على تمثال صغير من النحاس على شكل ثور ، عدا عليه الدهر ولكنه لا يزال يفيض حيوية وهمة ثورية ٠ وفى مدينة أور عثر المنقبون على رأس بقرة مصنوع من الفضة فى قبر الملكة شب - آد وهو آية فنية تشهد بما وصل إليه الفن من رقى عظيم (١١٥) ٠

وتقيدت أغلب النقوش السومرية بمبادىء الرسم والنقش الشائعة فى العالم القديم ، من حيث تصوير أشكالها فوق خطوط أفقية ترمز إلى الأرضية التى تقف عليها ،

وتضمن استواء صفوفها ، وتفصل بينها وبين صفوف المناظر التى تصور تحتها (وذلك مع استثناءات قليلة غير مقصودة لذاتها تخلى الناقش فيها عن تصوير أمثال هذه الخطوط) ، ثم من حيث تصوير وجه الإنسان وجذعه الأسفل من جانب مع تصوير عينه من أمام وتصوير كتفيه باتساعهما ، ومن حيث تصوير الأفراد يتعاقب الواحد منهم خلف الآخر حتى ولو كانوا يسيرون فى حقيقتهم فى جماعات مختلفة (مع استثناءات قليلة أيضا) ، ثم من حيث تصوير الحكام بأحجام تزيد عن أحجام مرؤوسيهم وأتباعهم وأولادهم أيضا (١١٦) .

وتدل صور الطبول والأبواق والصنوج والآلات التى عثر عليها المنقبون أن قدماء العراقيين عرفوا الموسيقى واستخدموها فى شؤونهم الدينية والاجتماعية ، فهناك مثلا صورة عازف على القيثار فى معبد تعود إلى زمن جوديا ، وصورة أخرى مرسومة على شقفة مزهرية تمثل كاهنا يقرع طبلا ترجع إلى ما بعد زمن جوديا بقليل (١١٧).وكان فى المعابد فئة من الكهنة هم المغنون والمرتلون الذين ينشدون التراتيل الدينية ، ويعرف الكاهن الذى يناط به تخفيف الغضب عن قلوب الآلهة بغنائه باسم " كالو " ، ويدعى كبير كهنة الكالو باسم " كلاماه " . وكان يصحب الغناء والترتيل الضرب على الطبول والأدوات النحاسية . وهناك فى المعبد كاهنات مغنيات وعازفات فى جوقة المعبد الموسيقية (١١٨) .

المضمون التربوى للأساطير العراقية :

سبق أن أشرنا فى الفصل السابق إلى ما تمثله الأساطير والصور الأدبية من " ذهنية قومية عامة " لها دورها المؤكد فى التوجيه الفكرى والإرشاد السلوكى ، مهما نظرنا إليها باعتبارها تقوم على " خرافات " ، ومن هنا نتوقف بعض الشىء أمام بعض المعانى والدلالات التربوية التى يمكن استقراؤها من بعض هذه الأساطير والصور الأدبية العراقية القديمة .

ومن أبرز الصور الأدبية " ملحمة جلجاميش " أبرز أساطير الأبطال ، والتى امتدت عبر حدود أرض الرافدين إلى أساطير الشعوب المجاورة (١١٩) ٠ وجلجاميش رجل يبحث عن الخلود ، وتتميز الملحمة بأن موقفها من الحياة ذاتى جديد نسبيا ، وهو فى أساسه شديد التشاؤم ، فالأبطال أنفسهم لا يستطيعون الفرار من الموت و " طرق المجد لا تؤدى إلا إلى القبر " ٠ والقصة التى تقصدها القصيدة قد لا تكون أسطورية فى جميع تفاصيلها ، فهى تصور البطل ملكا على مدينة " آرك " Uruk ، وكان هناك فعلا ملك عليها يسمى جلجاميش ، فلعل مغامراته بعد أن ضخمتها الأساطير هى منشأ هذه الأسطورة ٠

كان جلجاميش هو الرجل الذى رأى كل شىء وعرف الأسرار الخفية واكتشف سر الحكمة ، ولكنه كان يضهد شعبه ، فأرادت الآلهة أن تقيم منافسا يناوئه ، ولم يكن بين الأحياء ند له ، فخلقت الآلهة من يضارعه وسمته " إنكيدو Enkidu " ، ولكن البطلين ، بعد مغامرات مختلفة ، يصبحان صديقين ويقومان معا بأعمال فذة مروعة ، وبعد انتصارهما على المسخ المخيف الذى يسكن غابة الأرز ، تعجب الآلهة " عشتر " نفسها بجلجاميش وتعرض عليه الزواج منها ، ولكنه يرفض العرض ، ويعيرها بقصص غرامها الكثيرة المتسمة بالقسوة غير آبه لغضبها ٠٠ إلى آخر الملحمة (١٢٠) ٠

وتستحق هذه الملحمة أن تتبوأ مكانها فى الأدب العالمى ، لا لأنها سبقت الملحمة الهومرية بألف وخمسمائة سنة على الأقل فحسب ، بل من أجل نوع القصة التى ترويها وطبيعتها ، فهى مزاج من المغامرات الخالصة والأخلاقيات والمأساة ، ونحن من خلال الحدث نشهد اهتماما بشريا غاية فى البشرية بالفناء والبحث عن المعرفة وعن مهرب من القدر المشترك للإنسان ، وليس من الممكن أن تكون الآلهة مأساوية طالما أن الآلهة لا تموت ، ولئن لم يكن جلجاميش هو أول بطل من البشر ، فإنه أول بطل مأساوى نعلم عنه شيئا ، وهو على الفور أقرب الأبطال إلى نفوسنا ، كما أنه النموذج الأكثر تمثيلا للإنسان الفرد فى سعيه إلى الحياة والفهم ، وهو سعى من شأن خاتمته أن تكون مأساة ، ولربما كان من المدهش أن شيئا ما قديما كقدم قصة ترجع إلى الألف الثالثة ق٠م ، تبقى له القدرة على أن يتحرك ويظل يجتذب القراء فى القرن العشرين بعد الميلاد ، لكن هكذا كان شأنه ، وبالرغم من أن السرد ناقص ، وأن من

الممكن أن يظل السرد على نقص ، فإن ملحمة جلجاميش اليوم هى أجمل الشعر الملحمى الذى تبقى من أى فترة حتى ظهور الإلياذة لهوميروس ، وإنها لأقدم من هذا بزمان (١٢١)٠

ولعل من أبرز الأسباب التى أكسبت الملحمة شهرة واسعة (قديما وحديثا) كون موضوعها إنسانيا محضا (١٢٢)٠ يقول أحد الباحثين فى هذا الصدد أن ملحمة جلجاميش تتعامل مع أشياء من عالمنا الدنيوى مثل الإنسان والطبيعة ، الحب والمغامرة ، الصداقة والحرب ، وقد أمكن مزجها جميعا ببراعة متناهية لتكون خلفية لموضوع الملحمة الرئيس ، ألا وهو " حقيقة الموت المطلقة "٠ إن الكفاح الشديد لبطل الملحمة من أجل تغيير مصيره الإنسانى المحتوم ، عن طريق معرفة سر الخلود من رجل الطوفان ، ينتهى بالفشل فى نهاية الأمر ، ولكن مع ذلك الفشل يأتى شعور هادىء بالاستسلام ٠ ولأول مرة فى تاريخ العالم تجد تجربة عميقة على مثل هذا المستوى البطولى تعبيرا بأسلوب رفيع ٠

ويرتفع صوت بالنصيحة فى الملحمة لجلجاميش ، بألا يشغل ذهنه بالحياة بعد الموت ، وأن يفعل عكس ذلك ، بالاهتمام بهذه الحياة الدنيا التى نحياها (١٢٣):

أى جلجاميش ، لم هذا الجرى فى جميع الجهات ؟
إن الحياة التى تسعى لها لن تجدها أبدا ٠
إن الآلهة حين خلقت بنى الإنسان قدرت الموت على بنى الإنسان ٠
واحتفظت بالحياة فى أيديها ٠
أى جلجاميش ، املأ بطنك ٠
وكن مرحا بالنهار والليل ٠
بالنهار وبالليل ، كن مبتهجا راضيا ٠
وطهر ثيابك ٠
واغسل رأسك ، اغتسل بالماء ٠
والق بالك إلى الصغير الذى يمسك بيدك ٠
واستمتع بالزوجة التى تضمها إلى صدرك ٠

وقضية الطغيان والقهر من أولى القضايا التى تثيرها الملحمة ، فعلى الرغم من أنها تبدأ بالتغنى بمعرفة جلجاميش وحكمته وبصيرته ، ثم تتجه للإشادة بأعماله النادرة وإنجازاته فى البناء والعمران ، وتعود بعد ذلك مباشرة إلى تصويره فى صورة البطل القوى الجميل الذى يفوق فى قوته وجماله سائر البشر ، فإنها لا تلبث أن تقدم بعض الوقائع الواضحة الدلالة على قهره لشعبه بالليل وفى وضح النهار ، فهو كالثور الوحشى أو النطاح مهيبة خطاه وبأس سلاحه ليس له نظير ، وهو يوقظ رعاياه على دقات الطبول مما يثير سخط أهالى أوروك ٠ وهو لا يترك الإبن لأبيه ولا العذراء لحبيبها ولا ابنة البطل ولا زوجة المحارب ٠ صحيح أن كل هذه الوقائع والتفصيلات لا تقدم الطغيان فى جوانبه الإرهابية والدموية التى نتصورها اليوم ، بل ربما أمكن تبريرها على نحو أو آخر فى الإطار الأسطورى والدينى والاجتماعى والتاريخى الذى تدور فيه الملحمة ، ولكن هل تبرر هذه الوقائع شكوى الناس للآلهة واستجابتها لهم ؟ ألا توحى بأن الكاتب أو الكتاب قد سكتوا عن جرائم أفظع وأبشع – مضطرين أو مذعنين للعرف والتقليد الدينى الذى حكم بتأليه جلجاميش فى حياته وتوليته القضاء فى أرواح الموتى فى العالم السفلى بعد موته ، ثم التغنى بعدله ورعايته لشعبه وحب شعبه على مدى مئات السنين ؟ ! (١٢٤) ٠

واتسمت بعض نصوص الأدب البابلى بطابع يفوح برائحة التبرم ، وقوامه الشكوى من الظلم الاجتماعى ، والاحتجاج ضده أحيانا ٠ ولما كانت النظرة البابلية العامة إلى مجريات الحياة الكونية والاجتماعية ترى أن الآلهة هى التى توجه الأمور وتتحكم بالمصائر ، فقد كان اللوم الأساسى يوجه إليها ، فى حين أن الطبقة الأرستقراطية التى كانت تمتلك القوة الاقتصادية وتمارس السلطة السياسية ، كانت تظل غالبا خارج نطاق الاتهام المباشر ، على اعتبار أن الآلهة هى التى مكنتها من تحصيل أسباب قوتها ٠ إلا أنه من الملاحظ أن نزعة التبرم ، والميل إلى الاحتجاج لم يبلغا حدهما الأقصى (١٢٥)٠

فى قصيدة تعرف ب " الإلهيات البابلية " أو " حوار بين صديقين " نجد هذه الإشارة الواضحة إلى أن من يمسك بيده مقاليد القوة يستطيع أن يعزز موقعه الاجتماعى ، ولنقرأ معا النص التالى (١٢٦) :

- انتبه ياصديقى وافهم أفكارى .
- التفت إلى صفوة العبارة من كلماتى .
- فالناس يمجدون كلام الشخص القوى الذى تمرس فى القتل .
- ولكنهم يهينون (يبخسون) الشخص الضعيف الذى لم يرتكب أى خطأ .
- وهم يؤيدون الشرير الذى جريمته هى ...
- ومع ذلك فهم يضيقون على الشخص الشريف الذى يرعى إرادة إلهه
- إنهم يملؤون مخازن الظالم بالذهب .
- ولكنهم يفرغون حقيبة الشحاذ من مأكولاتها .

ومن القواعد الأخلاقية التى أظهرتها النصوص العراقية القديمة : الثواب والعقاب ، ونرى فى مجتمع الآلهة الذى تصوره هذه النصوص أمثلة الثواب والعقاب ترتبط بمكافأة البطولة وارتقاء مرتبة الإله البطل ، وازدياد سلطته بين الآلهة ، وكذلك إقامة هياكل تعبدية له فى المعابد الرئيسية ، حيث تغدق عليه القرابين ، وهذا ما يتضح بالنسبة للإله " نينورتا Ninurta " ، فى صراعه مع الطائر " أنزو Ansu " ، وكانت المكافأة أيضا ترتبط بالولاء ، ولاء مدينة لمدينة أخرى ، ففى زيارة الإله القمر إلى مدينة نفر ، اعترافا منه بسلطة الإله إنليل Enlil ، كانت المكافأة تعنى الرخاء والوفر ، يمنحهما الإله إنليل لمدينة أور . ومن إريدو ، مدينة الإله أنكى تعود الآلهة إنانا Inanna محملة بكامل أسس الحضارة تقدمها لمدينتها أوروك (١٢٧).

ووضع البابليون ، فى آدابهم ، بما لديهم من ولع بالنظام ، قوائم بجميع أنواع الظواهر الملاحظة ، بما فى ذلك الأخطاء التى تستوجب ، فيما يبدو القصاص الإلهى فى صورة المرض أو الاضطراب بل وحتى الموت (١٢٨) . أما نتائج الأفعال الحسنة فكانت تسجل أيضا . وهناك نصوص من التعاويذ تصف الآثم بأنه ذلك الذى يأكل ما حرمه على إلهه أو آلهته ، وهو من يقول " لا " بدلا من أن يقول " نعم " أو يقول " نعم " بدلا من أن يقول " لا " . وهو من يشير بإصبعه إلى مواطن (باتهام باطل) ، وهو الذى يقول ما لا يجوز قوله ، وهو الذى يحتقر إلهه أو يسخر من آلهته ، وهو الذى ينطق بالباطل ولا يحكم بالحق ، وهو الذى يظلم الضعيف ويباعد بين الإبن وأبيه وبين الصديق وصديقه ولا يعتق الأسير .

وتتحدث بعض القصائد حديثا جنسيا صريحا (١٢٩):

يا حبيبى ، أيها الغالى على قلبى
اللذة التى تمنحها ، حلوة كالعسل
يا أسدى ، أيها الغالى على قلبى
اللذة التى تمنحها حلوة كالعسل
أنت فتنتنى ، ها أنذا أرتجف كلية أمامك
رغبتى يا حبيبى أن تحملنى إلى غرفتك
دعنى يا عشيقى أمنحك ملاطفاتى !

وبعد أن تشير قصيدة إلى أعضاء جنسية صريحة ، تقول عن قدرة إله على إخصاب إمرأتين (١٣٠) :

يميل " إيل " ويقبل شفتيهما ،
ها هما شفتاهما عذبتان
عذبتان كالرمان
وبعد القبلة ، الحمل
وبعد الاحتضان المتقد ،
أتى أجل ولادتهما ،
فولدتا سحر وشالم

وسعت بعض النصوص أن تبذر بذور " الوطنية " من خلال ما تحمله من تقدير بالغ وإعزاز صريح بالمدينة ، فمن ذلك (١٣١) :

ابتهج الجميع وسادت الأفراح الأرض ، فسبحانك يا إنكى أيها الإله المقدس الذى بعد أن قرر المصائر اختار سومر من بين بقاع الأرض مكانا لحياة عظيمة ..

سومر .. يا أيها البلد العظيم ، لقد غمرتك الأضواء المستديمة ، والجميع من مشرق الأرض إلى مغربها هم طوع شرائعك المقدسة .

إن شرائعك سامية لا يمكن إدراكها ، وقلبك عميق لا يمكن سبر أغواره .

المعرفة الصحيحة التى تأتين بها كالسماء لا يمكن بلوغها ، والملك الذى تلدين متوج بالتاج الأبدى ، والرب هو الذى يضع التاج على رأسه إلى الأبد .

. . . . . .

أيتها المدينة الموفورة الزاد العميقة المياه القائمة كالثور القوى الثابت ، أنت منصة خير البلاد ، أنت خضراء كالجبل ...

الأبعاد التربوية للتفكير الدينى :

تضافرت عوامل عدة جعلت من التفكير الدينى هو صاحب المساحة الأوسع فى تفكير الإنسان القديم على وجه العموم ، والإنسان العراقى القديم على وجه الخصوص ، فالضعف الشديد الذى وجد الإنسان نفسه عليه ، جعله يتطلع إلى قوة أو قوى تملك ما يعجز عنه ، هى التى تشقيه وهى التى تسعده . ووجد الساسة من الحكام فى الدين أداة سحرية يحكمون بها الناس ، كالإدعاء بأنهم موكلون من قبل الآلهة بالحكم ، ومن ثم فإن طاعتهم واجبة ، ورجال الدين وجدوا فيه سوقا يقتمون فيه بالكثير من الأموال باعتبارهم خدمة الآلهة والوسطاء بين الناس وبينهم ، وهو بكل هذه الاعتبارات ، وهناك غيرها بطبيعة الحال ، اعتبر قوة مهمينة على العقل والسلوك ، معرفة وقيما ، مما لابد معه أن نتوقف بعض الشىء أمام عدد مما تصورنا أنه يشكل أبعادا تربوية للتفكير الدينى فى العراق القديم .

كان الإله لدى الديانات العراقية القديمة قويا عليما مانح الحياة وسالبها ، فها هو الملك " جوديا " يدعو متضرعا للإلهة " بو " راعية " إكش " ونصيرتها (١٣٢) :

أى ملكتى ، أيتها الأم التى شيدت إكش

إن الذين تلحظينهم بعينيك ينالون العزة والسلطان .

والعابد الذى تنظرين إليه تطول حياته .

إن عندك علم الخير ، وأنت الى وهبتنى أنفاس الحياة .

وفى نص آخر نجد :

أتوسل إليك يا سيدة السيدات ، ياربة الربات يا عشتار .
أنت نور الدنيا ، أنت نور السماء ، يا ابنة " سن " العظيم .
ألا ما أعظم قدرتك ، وما أعظم مقامك فوق الآلهة أجمعين .
إليك تخضع قوانين الأرض والسماء والهياكل والأضرحة .
حيث تتطلعين تعود الحياة إلى الموتى ، ويقوم المرضى ويمشون ويشفى عقل المريض إذا نظر إلى وجهك .

ولا حدود لحكمة بعض الآلهة ، مما يبرر أن تكون هى الموجهة وأن تكون هى صاحبة الكلمة على الإنسان (١٣٣):

إنكى الذى هو رب الماء والفكر الذى يمنح الحكام والفطنة ، والحكماء العقل ، والسحرة القوى الخارقة .

إنكى ، يا من بعينيك السحريتين حتى ولو كنت ساكنا غارقا فى الفكر تنفذ إلى قلب كل شىء .

يا من لا حدود لحكمتك ..

يا عميق العلم ، يامن تطاع عندما تقرر أمرًا وعندما تفصل منازعات الحق .

يا ناصحا من الشروق إلى الغروب ..

يا سيد اللفظ الحكيم .. إياك أحمد ..

وفى الآداب العراقية القديمة تكثر تلك التراتيم التى يضع الإنسان فيها أثقاله وآماله بين يدى الآلهة (١٣٤) :

متى يا إلهى ،
متى يا إلهى ، يتجه وجهك إلى ؟
متى ، يا إلهى ، يا من أعرفه ، ولا أعرفه ، يهدأ غضب قلبك ؟
متى يا إلهى : يا من أعرفها ولا أعرفها ، يهدأ قلبك الغضوب ؟
لقد فسد الإنسان ، وساء حكمه ،
ومن من الأحياء كلهم يعرف شيئا ؟
إنهم لا يعرفون أخيرا يفعلون أم شرا ؟
أى إلهى ، لا تنبذ خادمك ،

لقد ألقى فى الوحل فخذ بيده !
والذنب الذى أذنبت بدله رحمة !
والظلم الذى ارتكبته ، مر الريح أن تحمله !
واخلع عنى ذنوبى الكثيرة كما يخلع المرء الثياب !

ومن الملاحظ أن العقيدة العراقية القديمة قد استمت بسمتين أساسيتين (١٣٥) :
ا - التعددية ، إذ لم تتمحور الديانة حول إله واحد ، وإنما اعتمدت فكرة وجود عدد كبير من الآلهة ، تتوزع السلطات فيما بينها ، وهى تختلف من ناحية اختصاصاتها ومكانتها فى مجتمع الآلهة ، وقدرتها على اتخاذ القرارات .
ب - التماثلية ، أى تصور الآلهة على أنها تتصف بكل مزايا الإنسان الحسية منها والنفسية ، ما عدا الموت ، فهى تتزوج ، وتأكل وتشرب ، وتسكن البيوت ، كما أنها تغضب ، وتمرض وتتعرض للعقاب !

والإلهة " نانشه " هى الإلهة المحلية لمدينة لكش ، وهى ابنة الإله نانكى ، وقد كلفت بأن تكون هى المتحكمة فى أمور الإنسان وتدبير شئونه ، نقرأ فى أحد االنصوص السومرية (١٣٦) :
" استمع " آن " العظيم لكلام عبده الإنسان ، وكان قد أوكل إلى الإلهة نانشه أمر تنظيم حياة البشر على الأرض ، فهى التى تعرف اليتيم وتعرف الأرملة . إنها هى التى تعرف اضطهاد الإنسان للإنسان ، وهى أم اليتيم ، الإلهة نانشة التى تغنى بالأرملة والتى تحمى اللاذين بحضنها وحماها ، إنها هى التى تهيىء المأوى للمساكين والضعفاء ..."

ولما يلفت أبوها الإله " آن " إلى أن الفوضى قد عمت الأرض ، ولابد من وضع " معايير " لضبط سلوك البشر ، تجىء إجابة نانشه حاملة هذا التصور عن مجموعة من هذه القواعد المطلوبة (١٣٧) :
" إننى أرى يا مولاى بأن الإنسان مقسوم بين الخير والشر ، وعلينا أن نعاقب كل من سلك سبيل العدوان واغتصبت يده ما ليس له ومن تخطى حدود النظم المقررة ونقض العهود ، ومن نظر نظرة رضا إلى مواطن الشر ، ومن بدل الوزن الكبير بالوزن

الصغير ، ومن بدل الكيل الكبير بالكيل الصغير ، ومن أكل ما ليس له ولم يقل أكلته ، ومن شرب ما ليس له ولم يقل شربته ، ومن قال لآكلن ما حرم ومن قال لأشربن ما حرم " ٠

ومع ذلك فهناك من الآلهة من يخادع أمه من أجل عشيق ! هكذا تعلم بعض الأساطير الناس ، فإيناتا إلهة الزهرة تستجيب لإيحاء عشيقها وتوهم أمها بأنها لم تكن معه ، يقول النص على لسان هذا العشيق (١٣٨) :

فلأخبرك ، فلأخبرك
أى إيناتا ، يا أكثر النساء خداعا ، فلأخبرك
قولى إن صديقتى اصطحبتنى معها إلى الساحة العامة
حيث سلتنى بالموسيقى والرقص
وغنت لى أغنياتها الحلوة
فى الابتهاج الحلو قتلت الوقت هناك
بذلك تواجهين أمك ، فى خداع
بينما نحن كنا على ضوء القمر ننغمس فى شهوتنا ٠٠

وتروى أساطير العراق القديم قصة الطوفان ، تلك القصة التى نراها فى معظم القصص الدينى القديم ، وهى تكاد تتشابه مع ما ترويه الكتب المقدسة عن طوفان نوح ، عليه السلام ، مؤكدة جميعها على أن المسيرة المنحرفة للإنسان هى التى أوجبت أن يجىء الطوفان ، وهكذا تروى أسطورة سومرية أنه بعد فترة ليست بالطويلة ، من خلق العالم وظهور الحياة ، تكتشف الآلهة أن الإنسان لم يحقق تماما الغاية التى من أجلها قد خلق ، وأنه عاث فى الأرض التى استخلف فيها فسادا وسفك الدماء ، فتقرر إفناء الحياة على الأرض ، وغسلها بطوفان شامل ، تبدأ بعده تاريخا جديدا ٠ ولكن الإنسان خلال عهده القصير على الأرض ، قد حقق بعض غاياته ، وترك منجزات حضارية وثقافية لا يستهان بها ، ولذا لابد من الحفاظ على ذلك الجزء الصالح ونقله للعالم الجديد ليكون أساس البناء الثانى ٠ ولن يتسنى ذلك إلا بإنقاذ مجموعة صغيرة من البشر ، تحمل معها منجزات العمل الإنسانى لتبدأ منها عهدا ثانيا ، على أرض تطهرت من فساد الأجيال السالفة ، ويقود ملحمة النجاة هذه ، رجل حكيم صالح تختاره

الآلهة لهذه المهمة الفريدة ، وتوكل إليه مهمة بناء سفينة هائلة يحمل فيها أهله والمقربين إليه من الصالحين ومن كل زوجين من الحيوانات اثنين ، فيقلع بها عند انديا الطوفان ، وقد حمل فيها من المؤن ما يكفى ٠ وعند جفاف المياه يطلق حيواناته للجهات فتملأ الأرض مرة ثانية ، ويؤسس بمن تبقى من البشر مدينة جديدة (١٣٩) ٠

ويشكو واحد من كثير من الظلم الذى يقع عليه ، وتحمل كلماته شبهات شك فى عدل الآلهة ، فيبادره آخر قوى الإيمان بالعدل الإلهى (١٤٠) :

يا صديقى ، ما تقوله هو حقا محزن
ولكن ، أيها العزيز جدا ، إذا ما تركت روحك
تتغذى بالأفكار السيئة
تجعل عقلك رغم رجاحته ، يماثل عقل القاصر
وأراك بدلت تقاطيعك المنيرة بمظهر معتم !
آباؤنا ، مآلهم السير على طريق الموت
ومنذ الأزل اجتياز نهر العالم السفلى
ولكن ، إذا ما نظرت إلى البشر فى مجموعهم
فليست (المصادفة) هى التى أثرت
بكرا لا حيلة له
والسمين ممتلك الثروات ، من الذى يسر حاله ؟
وحده يبلغ النجاح ، من تطلع نحو وجه الإله
ووحده ، عبد الآلهة المتواضع يراكم الكثرة ٠

وكان الكهنة يعلمون الناس العلوم ويلقنونهم الأساطير ، وما من شك فى أنهم كانوا يتخذون من هذه الأساطير سبيلا إلى تعليم الناس ما يرونه هم ، وإلى حكمهم والسيطرة عليهم ٠ وكانت تلحق بمعظم الهياكل مدارس يعلم فيها الكهنة الأولاد والبنات الخط والحساب ، ويغرسون فى نفوسهم مبادىء الوطنية والصلاح ويعدون بعضهم للمهنة العليا مهنة الكتبة ٠ وقد بقيت لنا من أيامهم الألواح المدرسية وعليها جداول للضرب والقسمة ، والجذور التربيعية والتكعيبية ، ومسائل فى الهندسة التطبيقية (١٤١) ٠

الهوامـــــش

١- محمد حرب فرازات، و عيد مرعى : دول وحضارات فى الشرق العربى القديم ، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، دمشق ، ١٩٩٤ ، ص ١٩

٢- عبد العزيز صالح : الشرق الأدنى القديم ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٩٠ ، ص ٤٣٢

٣- عبد الباسط سيدا : من الوعى الأسطورى إلى بدايات التفكير الفلسفى النظرى ، دار الحصاد للنشر والتوزيع ، دمشق ، ١٩٩٥ ، ص ٨٦

٤- سامى سعيد الأحمد : السومريون وتراثهم الحضارى ، منشورات الجمعية التاريخية العراقية ، بغداد ، ١٩٧٥ ، ص ٥-٦

٥- دول وحضارات فى الشرق العربى القديم ، مرجع سابق ، ص ٢٠

٦- عبد الباسط سيدا ، مرجع سابق ، ص ٨٧

٧- عبد العزيز صالح ، مرجع سابق ، ص ٤٣١

٨- عبد المنعم أبو بكر : العراق القديم ، تاريخه وحضاراته ، فى : إبراهيم رزقانة وآخرون : حضارة مصر والشرق القديم ، نهضة مصر ، القاهرة ، د.ت ، ص ٢٦٢

٩- أحمد سوسه : حضارة وادى الرافدين ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ، ١٩٨٠ ، ص ٢٠

١٠- المرجع السابق ، ص ٢١

١١- المرجع السابق ، ص ٢٥

١٢- المرجع السابق ، ص٢٦

١٣- برهان الدين دلو : حضارة مصر والعراق ، دار الفارابى ، بيروت ، ١٩٨٩ ، ص ٢٢

١٤- المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

١٥- عبد المنعم أبو بكر ، مرجع سابق ، ص٢٥٧

١٦- دول وحضارات فى الشرق العربى القديم ، مرجع سابق ، ص٢٣

١٧- محمد بيومى مهران : تاريخ العراق القديم ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٠ ، ص ٣٤

١٨- عبد العزيز صالح ، مرجع سابق ، ص٤٤٢
١٩- أحمد سوسه : مرجع سابق ، ص ١١٤
٢٠- عبد الباسط سيدا ، مرجع سابق ، ص ٩٨
٢١- المرجع السابق ، ص ٩٩
٢٢- محمد بيومى مهران ، مرجع سابق ، ص ٨٥
٢٣- المرجع السابق ، ص ٨٦
٢٤- ول ديورانت : قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧١ ، م١ ، ج٢ ، ص ١١
٢٥- المرجع السابق ، ص ١٥
٢٦- عبد العزيز صالح ، مرجع سابق ، ص ٤٤٧
٢٧- أحمد سوسه ، ص ١٤٢
٢٨- دول وحضارات فى الشرق العربى القديم ،مرجع سابق ، ص ٥٤
٢٩- أحمد سوسه ، ص ١٤٣
٣٠- عبد الحكيم الذنون : بدايات الحضارة ، دار علاء الدين دمشق ، ١٩٩٣ ، ص ٢٤
٣١- سبتينو موسكاتى : الحضارات السامية القديمة ، ترجمة السيد يعقوب بكر ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، د٠ت ، ص ٦٧
٣٢- عبد المنعم أبو بكر ، مرجع سابق ، ص٢٨٠
٣٣- ول ديورانت : قصة الحضارة ، م١ ، ج٢ ، ص ٤٠
٣٤- عبد المنعم أبو بكر ، مرجع سابق ، ص ٢٨٥
٣٥- دول وحضارات فى الشرق العربى القديم ،مرجع سابق ، ص ٥٧
٣٦- عبد العزيز صالح ، ص ٤٧٨
٣٧- محمد بيومى مهران ، مرجع سابق ، ص ١٢٢
٣٨- الحضارات السامية القديمة ، مرجع سابق ، ص ٦٨
٣٩- محمد بيومى مهران ، مرجع سابق ، ص ٢١٥
٤٠- ول ديورانت ، قصة الحضارة ، م١ ، ج٢ ، ص ١٨٨
٤١- أ٠ف٠توملين : فلاسفة الشرق ، ترجمة عبد الحميد سليم ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ٩٢

٤٢- صوفى أبو طالب : مبادىء تاريخ القانون ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٧، ص ١٥٦
٤٣- فلاسفة الشرق ، مرجع سابق ، ص ٩٢
٤٤- عبد العزيز صالح ، مرجع سابق ،ص ٥٢٩
٤٥- ول ديورانت ، قصة الحضارة ، م١ ، ج٢ ، ص ١٩٤
٤٦- برهان الدين دلو ، مرجع سابق ، ص ٢٢٧
٤٧- المرجع السابق ، ص ٢٣٠
٤٨- المرجع السابق ، ص ٢٣١
٤٩- عبد المنعم أبو بكر ، مرجع سابق ، ص ٣٢١
٥٠- قصة الحضارة ، م١ ، ج٢ ، ص ٢٦٥
٥١- محمد مهران ، مرجع سابق ، ص ٣٢٦
٥٢- عبد المنعم أبو بكر ، مرجع سابق ، ص ٣٢٠
٥٣- قصة الحضارة ، م١ ، ج٢، ص ٢٢٧
٥٤- عبد العزيز صالح ، مرجع سابق ، ص ٦٢٣
٥٥- عبد المنعم أبو بكر ، مرجع سابق ، ص ٢٨٢
٥٦- المرجع السابق ، ص ٢٨٣
٥٧- مرغريت روثن : علوم البابليين ، تعريب يوسف حبى ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ، ١٩٨٠ ، ص ١٩
٥٨- المرجع السابق ، ص ٢٠
٥٩- ألكسندر ستيبتشفيتش : تاريخ الكتاب ، ترجمة محمد م٠ الأرناؤوط ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة (١٦٩) ، يناير ١٩٩٣ ، ج١ ، ص ١٢
٦٠- جورج سارتون : تاريخ العلم ، ترجمة محمد خلف الله وآخرون ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٩١ ، ج١ ، ص ١٥٣
٦١- المرجع السابق ، ص ١٥٤
٦٢- أحمد سوسه ، مرجع سابق ، ص ٤٢
٦٣- المرجع السابق ، ص ٤٣
٦٤- بورهارد برينتيس : نشوء الحضارات القديمة ، ترجمة جبرائيل يوسف كباس ،

الأبجدية للنشر ، دار الأبجدية للنشر ، دمشق ، ١٩٨٩ ، ص٨٠
٦٥- فاضل عبد الواحد على : من سومر إلى التوراة ، دار سينا للنشر ، القاهرة ، ١٩٩٦ ، ص ٤٠
٦٦- قصة الحضارة ، م١ ، ج٢ ، ص ٢٣٧
٦٧- فاضل عبد الواحد على ، مرجع سابق ، ص ٩٨
٦٨- سارتون ، تاريخ العلم ، مرجع سابق ، ج١ ، ص ١٦٠
٦٩- المرجع السابق ، ص ١٦١
٧٠ - عبد العزيز صالح ، مرجع سابق ، ص ٤٥٣
٧١- المرجع السابق ، ص ٤٥٤
٧٢- صمويل كريمر : من ألواح سومر ، ترجمة طه باقر ، مؤسسة الخانجى ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ٤٤
٧٣- المرجع السابق ، ص٤٥
٧٤ - المرجع السابق ، ص ١٢٢
٧٥-المرجع السابق ، ص ٤٦
٧٦ - المرجع السابق ، ص ٤٧
٧٧- س٠ كريمر : طقوس الجنس المقدس عند السومريين ، ترجمة نهاد خياطة ، دار علاء الدين ، دمشق ، ١٩٩٣ ، ص ٣٩
٧٨- فاضل عبد الواحد على ، مرجع سابق ، ص ١١٣
٧٩- من ألواح سومر ، مرجع سابق ، ص ٥٠
٨٠- المرجع السابق ، ص ٥٦
٨١- علوم البابليين ، مرجع سابق ، ص ٣٥
٨٢ - المرجع السابق ، الصفحة نفسها
٨٣- المرجع السابق ، ص٣٦
٨٤- أحمد فهمى القطان : تاريخ التربية ، مطبعة مدرسة طنطا الصناعية ، طنطا ، ١٩٢٣ ، ص ٦٠
٨٥- قصة الحضارة ، مرجع سابق ، م١ ، ج٢ ، ص ٣٢
٨٦- عبد المنعم أبو بكر ، مرجع سابق ، ص ٢٩٩
٨٧-عبد الحكيم الذنون : التشريعات البابلية ، دار علاء الدين ، دمشق ، ١٩٩٢ ،

ص ٤٨ وما بعدها

٨٨- عبد المنعم أبو بكر ،مرجع سابق ، ص ٣٤١

٨٩- المرجع السابق ، ص ٣٤٢

٩٠- علوم البابليين ، مرجع سابق ، ص ٣٥

٩١- سارتون : تاريخ العلم ، مرجع سابق ، ج١ ، ص ١٥٨

٩٢- المرجع السابق ، ص ١٥٩

٩٣- تاريخ الكتاب ، مرجع سابق ، ص ١٤

٩٤- فاضل عبد الواحد على ، مرجع سابق ، ص ١١٤

٩٥- علوم البابليين ، مرجع سابق ، ص٣٧

٩٦- تاريخ الكتاب ، مرجع سابق ، ج١ ، ص ٢٤

٩٧- المرجع السابق ، ص ٢٥

٩٨- المرجع السابق ، ص ٢٧

٩٩- علوم البابليين ، مرجع سابق ، ص١١٤

١٠٠- برهان الدين دلو ، مرجع سابق ، ص ٣٤٥

١٠١- سارتون : تاريخ العلم ،مرجع سابق ، ج١ ، ص ١٠٠

١٠٢- برهان الدين دلو ، مرجع سابق ، ص ٣٤٦

١٠٣- ديورانت ، قصة الحضارة ، م١ ، ج٢ ، ص ٢٥٠

١٠٤- المرجع السابق ، ص ٢٥١

١٠٥- المرجع السابق ، ص٢٥٢

١٠٦-علوم البابليين ، مرجع سابق ، ص ١٠٧

١٠٧- محمد عبد الرحمن مرحبا : المرجع فى تاريخ العلوم عند العرب ، ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ص ٨٤

١٠٨- علوم البابليين ، مرجع سابق ، ص ٦٨

١٠٩- المرجع السابق ، ص ٧٠

١١٠- ديورانت ، قصة الحضارة ، م١ ، ج٢ ، ص ٢٥٣

١١١- برهان الدين دلو ، مرجع سابق ، ص ٣٤٩

١١٢- نجيب ميخائيل إبراهيم : مصر والشرق الأدنى القديم ، دار المعارف ، ١٩٦١ ، ج٦، ص ٨٠

١١٣- برهان الدين دلو ، مرجع سابق ، ص ٣٣٨
١١٤- طه باقر : مقدمة فى تأريخ الحضارات القديمة ، شركة التجارة والطباعة ، بغداد ، ١٩٦١ ، ج١ ، ص٣٢٧
١١٥- ديورانت ، قصة الحضارة ، م١ ، ج٢ ، ص ٣٨
١١٦- عبد العزيز صالح ، مرجع سابق ، ص ٤٦
١١٧- برهان الدين دلو ، مرجع سابق . ص ٣٧٥
١١٨- المرجع السابق ، ص ٣٧٦
١١٩- الحضارات السامية القديمة ، مرجع سابق ، ص ٨٦
١٢٠- المرجع السابق ، ص ٨٧
١٢١- ن٠ك٠ساندرز : ملحمة جلجاميش ، ترجمة محمد نبيل نوفل ، وفاروق حافظ القاضى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ٩
١٢٢- فاضل عبد الواحد على : ملحمة جلجاميش ، فى : عالم الفكر ، وزارة الإعلام ، الكويت ، م١٦ ، العدد الأول ١٩٨٥ ، ٣٦
١٢٣- ديورانت ، قصة الحضارة ، م١، ج٢ ، ص ٢٥٨
١٢٤- عبد الغفار مكاوى : جلجاميش وجنور الطغيان ، فى : مجلة العلوم الإنسانية ، مجلس النشر العلمى ، جامعة الكويت ، العدد ٤٢ ، السنة ١١ ، شتاء ١٩٩٣ ، ص ٢٨
١٢٥- عبد الباسط سيدا ، مرجع سابق ، ص ٢٥٢
١٢٦- المرجع السابق ، ص ٢٥٧
١٢٧- قاسم الشواف : ديوان الأساطير ، دار الساقى ، بيروت ، ١٩٩٧ ، الكتاب الثانى ، ص ٢١٩
١٢٨- جفرى بارندر (تحرير) : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة (١٣٧) ، مايو ١٩٩٣ ، ص٢٤
١٢٩- قاسم الشواف : ديوان الأساطير ، دار الساقى ، بيروت ، ١٩٩٦ ، الكتا الأول ، ص ١٧١
١٣٠- المرجع السابق ، ص ١٥٢
١٣١- خزعل الماجدى : إنجيل سومر ، الأهلية للنشر والتوزيع ، عمان ، ١٩٩٨

، ص ٥٤

١٣٢- حسين العودات : الموت فى الديانات الشرقية ، الأهالى للطباعة والنشر ، دمشق ، ١٩٩٥ ، ص٣٠

١٣٣- إنجيل سومر ، ص ٤١

١٣٤- ديورانت ، قصة الحضارة ، م١ ، ج٢ ، ص ٢٢٤

١٣٥- عبد الباسط سيدا ، مرجع سابق ، ص ١٦٥

١٣٦- إنجيل سومر ، مرجع سابق ، ص ١٤٧

١٣٧- المرجع السابق ، ص ١٤٨

١٣٨- طقوس الجنس المقدس عند السومريين ، مرجع سابق ، ص١١٤

١٣٩- فراس السواح : مغامرة العقل الأولى ، دار علاء الدين ، دمشق ، ١٩٩٦ ، ص ١٥٣

١٤٠- ديوان الأساطير ، الكتاب الثانى ، مرجع سابق ، ص ٤٥٢

١٤١- ديورانت ، قصة الحضارة ، م١، ج٢ ، ص ٣١